مجاهِدُ مأمونُ ديرانيّة

١١٠ نصَائح لتربيَةِ طفلٍ صالِح



الأُجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

الطبعة الإلكترونية الثالثة

الطبعة السابعة
٢٠٢٥

العنوان الإلكتروني للمؤلف
mujahed@al-ajyal.com

العنوان الإلكتروني للناشر
books@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com

مجاهد مأمون ديرانية

١١٠ نصائح لتربية طفلٍ صالح


الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أبَوَين عظيمين

علَّمَاني مَكارمَ الأخلاق

المقدّمة

تعود بدايات هذا الكتاب إلى أكثر من سبعَ عشرةَ سنةً خلَتْ، حين كان ولداي الكبيران في أول سِنِيْ حياتهم، وكذلك أبناء وبنات عدد ممن عرفت يومئذ من الأصدقاء.

رأيت -يومها- ندرة ما يعثر عليه المرء من كتابات عَمَلية تساعد على تربية الأبناء (على شدّة حاجة الآباء والأمهات إلى مثل هذه الكتابات) فدوّنتُ عدداً من الأفكار التي خطرت ببالي وجمعتها في وُرَيقات سميتها «نظرات في تربية الطفل المسلم»، ثم صوّرتُها ووزّعت نسخاً منها على الأصدقاء والمقربين.

ولم أُرِدْ لها النشر ولم أظن أنها تصلح له، ولكنّ بعض مَن رآها نقلها إلى سواه فلقيت بعض الانتشار، ثم أخذها محررٌ في صحيفة محلية فنشرها على حلقات، وصوّرَتْها مديرةُ مدرسة -فيما علمت- فوزّعَتْها في مدرستها. فخطر لي -بعد كل هذه السنوات- أن أعود إليها فأصلح أمرها وأعدّها للنشر، لعل بعض الناس

ينتفع ببعض ما فيها فيكون لي في الإصلاح سهم وفي الخير نصيب.

فذهبت فأعدت صياغة كل فكرة لتغدو أكثر وضوحاً، وزدت عليها مثلَها أو أكثر قليلاً فبلغَتْ مئةً وعشر فِكَر، وقد كانت بضعاً وأربعين. وكان اسمها «نظرات»، فاستكبرتُ هذا الاسم إذ لا يصح إلاّ من خبير مختص، فسميتها «نصائح» لأني وجدتها أقربَ إلى النصيحة؛ مَن شاء أخذ بها ومَن شاء تركها إلى سواها من أساليب التربية وطرقها.

وما هي إلا اجتهاداتُ واحدٍ من الآباء الذين أحسوا بثقل أمانة التربية واستشعروا عِظَم مسؤوليتها، لا أزعم لها الكمال ولا أدّعي أني أجدتُ فيها كلها أو أصبت. كما لا أزعم أنني أدرجت في هذه الوُرَيقات كل ما يحتاج إلى معرفته أو الانتباه إليه الوالدان، ولقد بدأتُ (كما قلت آنفاً) بأقل من خمسين فكرة، ثم ما زلت أضيف إليها وأضيف، وفي كل يوم تخطر ببالي أفكار جديدة، حتى بلغَتْ ما ترون بين أيديكم، ولو أردت تأخير إصدار الكتاب حتى أقتنع أنْ لم يبقَ مزيدٌ ليُضاف إليه لما صدر أبداً.

* * *

وبعد، فإن مما يُروى في بعض كتب التربية أن سيدة سألت -ذات مرة- مربياً مشهوراً: ما هو الوقت المبكر الذي أستطيع أن أبدأ فيه تعليم طفلي؟ فسألها المربي: متى سيولد هذا الطفل؟ فأجابت السيدة: يولد؟ إنه الآن في الخامسة من عمره. فصاح المربي: ماذا تقولين أيتها السيدة؟! لا تقفي هنا تتحدثين. أسرعي إلى البيت، لقد ضاعت منك أحسن خمس سنوات في حياته!

إن شخصية الإنسان تتبلور وتتحدد معالمها خلال السنوات السبع الأولى من حياته كما يقول أهل التربية، وهذه السنوات القلائل التي تسبق دخول الطفل إلى المدرسة هي المرحلة التي تنغرس فيها في نفس الطفل كل المبادئ والقيم التي يحملها معه طول حياته، سواء في ذلك مبادئ الخير أو مبادئ الشر، والقيم الصالحة أو القيم الفاسدة.

فمن أجل ذلك أميل إلى تسمية السنوات الأربع من عمر الطفل التي تمتد بين الثالثة والسادسة (والتي تسبق دخول المدرسة مباشرة) «سنوات الذهَب» في تربية الأطفال؛ مَن فوّتَ فيها فرصةَ التكوين الصحيح لطفله كاد ألاّ ينجح في أي علاج من بعد! ومن أجل ذلك ترون أن القسم الذي اهتم بهذه المرحلة من العمر

في هذا الكتاب هو الأكثر ازدحاماً بالنقاط والأفكار، ويكاد يمثّل ثلث الكتاب.

فلا تفوِّتوا فرصةً قد تندمون عليها العمرَ كله، وعالجوا في هذه السن كل عيب وازرعوا أساسَ كل فضيلة وكل خلق قويم. ثم إن استفدتم من هذا الكتاب (ولو بسطر منه) فامنحوني مِنّةَ الدعاء بظهر الغيب، وادعوا لي الله أن يرزقني الهمة والوقت ويوفّقني إلى إخراج ما أخطط له من كتابات أكثر تفصيلاً لبعض القضايا التربوية المهمة التي أَجمَلها هذا الكتاب.

مجاهد

رجب ١٤٢٢

أيلول ٢٠٠١

تنبيهات

(١) لم تُرتَّب الأفكار في الكتاب بحسب أهميتها المعنوية، بل اقتصر تنظيمها على مراحل زمنية من عمر الطفل، فأُفرِدَت السنة الأولى بأفكار مستقلة، ثم الثانية، وبعدهما السنوات الأربع التالية (من الثالثة إلى السادسة)، ثم من السابعة إلى الثانية عشرة، وهي سن المرحلة المدرسية الابتدائية. وابتدأ ذلك كله بقسم عام أُدرِجَت فيه الأفكار التي تشترك فيها المراحل السابقة جميعاً.

(٢) ليس هذا الكتاب الصغير موسوعة في التربية، وليست الأفكار التي كُتبت فيه شاملة كاملة، ولا هي كل ما يجب أن يؤخَذ بعين الاعتبار عند تربية الطفل. ولسوف يكتشف كثيرٌ من الآباء والأمهات أن كثيراً من الأفكار النافعة والنصائح المفيدة التي يمكن التفكير بها قد غابت عن هذا الكتاب، فليُضِفْ كلٌّ قارئ إلى نسخته ما يحسبه أكثرَ فائدةً وأشدَّ نفعاً (ولا عليه أن يضع اسمه فوق اسمي على غلاف الكتاب)!

(٣) ذُكِرت الأفكار مجرَّدةً دون استفاضة بالشرح ودون أمثلة (إلاّ قليلاً)، لأن القصد من هذا الكتيّب ليس بحثاً تربوياً متكاملاً بمقدار ما هو تناصح وتذكير في بعض أمور التربية (التي ربما عرفها بعض الآباء ولم يهتموا بها، وربما غابت عن آخرين). وقد ألزمت نفسي بألاّ تتجاوز أي فكرة صفحةً واحدة، وضغطت العبارات بقدر ما وسعني الضغط حتى أبقى ضمن هذه الحدود.

(٤) كان يمكن لكثير مما ورد في هذا الكتاب من أفكار أن يُدلَّل عليه أو يُستشَهد له بآيات أو بأحاديث، غيرَ أنني تجنبتُ أي تفصيل من هذا القبيل للسبب السابق نفسه.

(٥) إن الأفكار والنقاط المذكورة في هذا البحث قد تفقد أهميتها أو تصبح عكسية الأثر اذا ما طُبِّق بعضها بشكل جزئي، ذلك أنّ بعضَها يعتمد على بعض، وتكامُلُ التطبيق وتوازنه فيها أمر ضروري لتمام الانتفاع بها.

(٦) الحلول التي طُرِحت هي الحلول العامة، ولكن هذا لا يمنع من وجود حالات لا ينطبق عليها كل ما ذُكر، وفي مثل هذه الحالة يستبعد المربّي الأسلوب

المذكور أو يستبدل به غيره.

(٧) لبعض الأفكار التربوية أهميةٌ خاصة في عمر معين وأهميةٌ من نوع آخر في مرحلة أخرى، ومن أجل ذلك فقد يتكرر عرض الموضوع الواحد أكثرَ من مرة في أكثر من مرحلة زمنية، ولكنه لن يكون تكراراً مجرداً، بل هو استعراض للموضوع ذاته من زاوية أخرى وبأسلوب مختلف يتناسب والمرحلةَ الجديدة من عمر الطفل.

(٨) بقيت ملاحظة أخيرة مهمة: هذا الكتاب موجَّهٌ للوالدَين كليهما لأن مسؤولية التربية موزعة بينهما بالتساوي. نعم، إن كثيراً من أدبيات التربية تزعم أن المرأة هي المكلفة بتربية الأولاد، ولست أنازع في الدور العظيم الذي تلعبه الأم في التربية، ولكني أخشى أن يستند إليه آباء كثيرون فيهربوا من بيوتهم ويدَعوا لزوجاتهم هذه المهمة الشاقة الجليلة بلا مساعد ولا معين. لا يا أيها الآباء، بل أنتم أيضاً مسؤولون، فأين تولون وإلى أين تهربون؟

على أني قد استعملت أكثر الخطاب بصيغة المذكر، فحيثما ورد الكلام بهذه الصيغة فهو مشترَك بين الأبوين (إلا أن أخص الأم بما هو من صميم عمل

الأمهات). وليس في ذلك غضاضة ولا فيه انتقاص من الأمهات، فقد ذكر أهل اللغة أن اللفظ المذكّر على عمومه يشمل الذكور والإناث ما لم يُحدَّد فيه الذكور (قال ابن فارس في كتابه العظيم «الصاحبي»: إذا جاء الخطاب بلفظٍ مذكر ولم يُنَصّ فيه على ذكر الرجال فإن ذلك الخطاب شامل للذّكران والإناث، وهو كثير في القرآن. كذا تعرف العرب هذا).

* * *

القسم الأول

نصائح وأفكار عامة

هذا القسم يتضمّن الأفكار التي لا تخضع لمرحلة محدَّدة من مراحل العمر ولا ترتبط ارتباطاً مباشراً بسنٍّ معينة دون أخرى، وعلى هذا فهي تصلح للتطبيق في أي وقت خلال السنوات الاثنتَي عشرة الأولى (التي هي مجال هذا الكتاب)، وربّما خلال سنواتٍ تاليةٍ أيضاً.

١

ليكن أساسُ التربية المحبةَ والعاطفةَ المتبادَلة بينك وبين ولدك ولا تكن قائمةً على التخويف والإرهاب، فإنهما لا يدومان.

وإذا كنت تسيطر على ولدك بقوتك فتذكّرْ أنك تكبُر فتضعف ويكبر ولدك فيقوَى، وأنّه يأتي يومٌ يكون فيه أطولَ منك وأكبرَ حجماً وأكثرَ قوة، فكيف ستسيطر عليه في ذلك اليوم لو فُقِدتْ المحبة بينكما؟

والمحبة تولّد المحبة، والطفلُ يدركها إذا تلقاها ويبادل معطيه بمثلها، فهو إذا تلقّى المحبة سيردُّ بأن يُحِبّ الآخرين، أما إذا تلقّى القسوة والجفاء فسوف ينشأ عدوانياً قاسياً.

هل تعلم أن الذين عانوا في طفولتهم من قسوة الأب أو غياب عاطفة الأم يشكلون الأغلبيةَ بين المنحرفين والمجرمين والمرضى النفسيين؟

٢

استخدم قوّةَ الإيحاء.

كل واحد من الناس يتأثر بالإيحاء، والأطفال يتأثرون به بشكل أكبر بالتأكيد. قل للطفل مرةً بعد مرة ويوماً بعد يوم: "أنت لطيف مؤدَّب" ثم انظر كيف يصبح كذلك، وإن شئت (ولا أنصحك) جرّب العكس، فخبّره وداوم على إخباره كم هو سيّئ متعِب، وعندئذ سيكون كما قلت.

إنه الإيحاء، هذه القوة السحرية التي تجعل الفاشلَ ناجحاً والناجحَ فاشلاً، وتُحيل السقيمَ صحيحاً والصحيحَ سقيماً. فاستعملها كل يوم ولا تملَّ من استعمالها، وفكّرْ في كل خصلة حميدة تحبها لطفلك فأوحِ بها إليه حتى يظنها في نفسه، فإذا اقتنع عقلُه بأنه يملكها ظهر أثرها في جوارحه وحركاته وأفعاله وأقواله. وكذلك فكّرْ في كل خصلة لا تريدها له فأوحِ له بأنه منها بَراء، فلن يلبث أن يهجرها ويتخلص منها ولا يعود إليها بإذن الله.

٣

الأسلوب السحري الآخر هو التشجيع، فتذكّره دائماً ومارسه مع أبنائك في كل يوم.

إنه وصفة تربوية عظيمة قلّما تخطئ، وهو أسلوب يكاد ينجح في كل حالة مهما تكن هذه الحالة مستعصية. يستوي في ذلك التشجيعُ على أداء العمل الطيب والتشجيعُ على ترك الفعل السيّئ: التشجيع على الصلاة، وعلى الدراسة، وعلى المساعدة في عمل البيت، وعلى إيثار الغير... وعلى مئة فضيلة، بل على مئات. والتشجيع على تجنب الكذب، أو هجر الكسل، أو التخلي عن السلوك العدواني مع الصغار... أو الابتعاد عن مئة سلوك مذموم، بل مئات.

طوِّرْ لديك عادةً من أفضل عادات الحياة في التعامل مع الآخرين، وهي أن تركز على الفعل الإيجابي الجيد وتشجّع على تنميته. لا تتصيد أخطاء الطفل لتوبيخه عليها بل حسناته لتشجيعه عليها، ثم انظر أي طفل رائع سيكون.

٤

نَمِّ في طفلك مَلَكة الاعتماد على النّفس ولا تجعله اتكاليّاً عديم المقدرة على تنفيذ أي أمر.

إن هذا سيحتاج منك إلى صبر واحتمال لأن الطفل لن يتقن كل شيء من المرة الأولى: كيف يأكل وحده ويشرب وحده وهو في سنته الأولى مثلاً، ثم كيف ينفذ الأعمال المختلفة وهو يتقدم في السن. وسيحتاج الأمر تدخلاً منك لمساعدته وإرشاده مرةً بعد مرة.

وكذلك يجب عليك ألاّ تتعجّل تطور الطفل ونموّه.
إنّ الآباء يحبون أن يشاهدوا أبناءهم وقد صاروا كباراً في وقت مبكر، لكن من الحكمة أن تدع كل شيء لوقته المناسب. وتذكّرْ أن الأطفال الذين لا يُشبعون رغبات الطفولة في تلك المرحلة من عمرهم قد يحملون معهم اشتياقاً دفيناً إليها بقيةَ حياتهم فيأتون -وهم كبار- بالمضحكات!

٥

لا تجعل طفلك ضعيفاً مستسلماً مهزوز الشخصية، ولا تفسده بالدلال.

إن الطفل ينشأ بلا شخصية إذا هُرِعْتَ إليه كلما بكى أو اشتكى، وإذا أسرعتَ تحمله وتضمه إليك كلما وقع، وإذا أشعرتَه بأنك وراءه دائماً كأنك الملاك الحارس. بل دعه يقعُ ويقوم، ويبكي ويسكت، ويُجرَح فيداوي نفسه، ويتعثّر فينهض بعزمه وإرادته.

وليس معنى ذلك أن تهمله فيُصاب أو يتضرّر ولا تلاحظُ أنت ذلك لا سمح الله، وإنما المقصود أن تراقب عن بُعد، فإذا استدعى الأمر تدخّلاً منك تدخلت، ولكن لا تفعل حتى تتأكد أن لتدخلك ضرورة حقيقية.

ولعلّ الأمهات أحوج إلى الانتباه لهذا الأمر من الآباء.

٦

علّمْ أبناءك فضيلة الاقتصاد، وساعدهم على الإحساس بقيمة الأشياء.

إذا غادر ابنُك غرفتَه وتركَ النورَ فيها مُضاءً أو غسل يديه والماء يتدفق من الصنبور بكل قوة فنبهه إلى أن هدر الماء وتضييع الطاقة لا يجوز. وإنْ كسر لعبته باستهتار فأخبره أنك دفعت ثمنها وأنك تتعب حتى تحصل على النقود فلا يصح إتلافها بغير حق. وذكّره بمثل ذلك لو طلب شيئاً غالي الثمن له بديل رخيص. وإذا وسّخ ملابسه أو شَقّ ثوبه وهو يلعب فذكّريه أنك تتعبين بالتنظيف ورَتْق الثوب، وأن تعبك لا يصح الاستهتارُ به.

إنكم بذلك تحققون بعض مقاصد الدين التي تنهى عن الإسراف، وتوفرون على أنفسكم جهداً ومالاً أنتم أَولى بهما من الضّياع، وتساعدون ابنكم على الاستمتاع بما يملك، لأن وَفرة الأشياء وسهولة الحصول عليها يُفقدانِها كثيراً من قيمتها وبهجة امتلاكها.

٧

علِّمْ ولدك أن يحسن إلى كل شيء.

لقد سخّر الله لنا الكون لنعمره بالصلاح لا لنخرّبه ونعتدي على كل ما فيه وكل مَن فيه. إن العالَم مزدحمٌ بجيوش من المخربين والمعتدين الذين يسببون الأذى لكل شيء: للناس والحيوانات والنباتات والبيئة والأبنية والطرق وممتلكات الناس... فلا تساهم في إضافة جندي جديد إلى هذه الجيوش المخرّبة!

درّبْ طفلك على العيش في سلام وعلى مصالحة الكون والخلق، وليكن صديقاً للبيئة التي يعيش فيها محسناً إليها مدافعاً عنها لا مسيئاً إليها معتدياً عليها، فلا يعتدي على مَن هو أضعف منه (لا من الناس ولا من غيرهم من المخلوقات)، ولا يؤذي قطة ولا يكسر عود شجرة ولا يرمي قذارة في الطريق، بل ولا يقتل حشرة لا تسبب له الضرر ولا يأتي منها خطر.

٨

اغرز الحياء في نفس طفلك منذ المهد.

إنّ الحياء أصلٌ في الفطرة السّليمة التي يولد عليها الطفل، ولكن التربية التي يتلقّاها بعد ذلك إمّا أن تكرّس هذا الحياء وتؤصِّلَه أو تفسده وتخرِّبَه.

يبدأ الطفل بالإدراك منذ أوائل السنة الثانية وينمو إدراكه مع الوقت، فاحرص على ألاّ تُكشَف عورة الطفل أمام الآخرين (سواء غيره من الأطفال أو الكبار من الناس) وألاّ تُكشَف العورات أمامه (عورة الأب أو الأم مثلاً، أو إخوة الطفل وأخواته الصغار) ولا سيما بعد أن يبلغ الرابعة من العمر.

ولا تستصغر طفلك أو تظنّ أنه أصغر من أن يعي ما يرى، فإن الطفل يتأثر بما يقع أمامه ولو كان صغيراً، والصور التي يراها الطفل -حتى في سنواته الأولى- تنطبع في خياله الباطن أو في عقله اللاواعي ولو بشكل مبهم، وهي تؤثّر في تشكيل شخصيته وقناعاته وقِيَمه بعد ذلك.

٩

لا تجعل طفلك أسيرَ عادة، بمعنى أن يُخضع لها نفسه فلا يعود يستطيع خرقها.

فمن ذلك أن لا ينام الرضيع إلاّ هزّاً أو محمولاً، ولا ينام وهو طفلٌ صغير إلاّ والنورُ مضاء أو بوجود أمه أو أبيه بجانبه. ومن ذلك أن يعتاد الأكل أو الشرب في إناء معيّن، أو يعتاد لوناً من الطعام أو نوعاً من الشراب لا يستغني عنه في أي يوم، ثم يكبر فيعتاد مستوى من العيش قد لا يحتمل أبواه الدوام عليه.

حاول أن تغيّر ظروف طفلك باستمرار، واجتهد ألاّ تخضع لعادات طفلك، بل أطلقه من إسارها، فإنّ ذلك يعينه عندما يكبر فيصبح أقوى من ظروفه وأقوى من عاداته. وإذا كبر فحاوره وذكّره بأن الحياة من سِماتها التقلب وأن الحال فيها لا يدوم، فخيرٌ له أن يساير تقلب الحياة من أن يَحْطِمه تقلّبُ الحياة.

١٠

اللَّعِب حاجة طبيعية أساسية من حاجات الطفل، بل ربما لا ينمو الطفل نمواً سليماً إذا حُرم اللعب في سِني حياته المبكرة.

أحضر لطفلك ما يناسب عمره من اللُعَب، لعباً بسيطة في أول الأمر، ثم تلك التي تنمّي لديه القدرة على التفكير وتساعده على الإبداع والابتكار (لُعَب فيها فك وتركيب وتشكيل وتشغيل). لاحظ أن صانعي اللعَب يوصون بما يناسب لُعَبهم من سن، فتخيّرْ ما يناسب عمر طفلك منها. وتجنب اللعب المؤذية، فإن منها ما يسبب الذعر للصغير، وبعضها قد يُصدر أصواتاً عالية تؤذي السمع أو يحتوي على قطع حادة تسبب الجروح.

ثم راقب طفلك وهو يلعب وساعده على اللَعِب بطريقة صحيحة (فلا يحطّم اللعَب مثلاً)، ولا بأس بأن تشاركه لَعِبه في بعض الأحيان.

١١

اعتمدوا نظاماً عاماً للحياة، فإن من شأن ذلك أن يريح كل الأطراف ويوفّر كثيراً من المعاناة على الأبناء والآباء جميعاً.

هذا النظام يجب أن يحدد الخطوط العريضة (وليس التفاصيل الدقيقة) لأسلوب الحياة في البيت: كأوقات الوجبات والنوم والقيام من الفراش في الصباح مثلاً. وللحقوق والواجبات أيضاً: كالمشاركة في أعمال البيت وتقسيم الوقت بين العمل والتسلية. وللأصول والقيم العامة: كاحترام الصغير للكبير ومساعدة الكبير للصغير واستئذان الأبوين في الأنشطة غير الرتيبة (كاستعارة بعض أغراضهما أو زيارة الأصدقاء أو دعوتهم إلى البيت).

على أن هذا النظام لن يكون بمنزلة الشرع الذي لا يخالَف ولا هو قرآن لا يُبدَّل، فإذا دعت الضرورة المُلِحّة إلى تعديلٍ أو تجاوزٍ فليكن فيه من المرونة ما يسمح بذلك.

١٢

«الطفل الوحيد» لا تستقيم تربيته لكثير من الأسباب، فإذا تَفضّلَ الله على الأبوين فليسعيا إلى ولدين أو أكثر، فإنهما يهيئان -بذلك- لأبنائهما ظروفاً أسلم للتربية.

إن الطفل الوحيد ينشأ طفلاً أنانياً لأنه اعتاد أنّ الأشياء واللُعَب والاهتمام: كل ذلك له وحده لا يشاركه فيه أحد، وينشأ طفلاً عدوانياً لأنه يريد الاستئثار بكل شيء وبكل اهتمام، وينشأ طفلاً خيالياً لأنه يعيش وحيداً دون مَن يشاركه حياته وكلامه ولعبه، وينشأ طفلاً انطوائياً غير اجتماعي.

إن العلل التي تنشأ عن طفل وحيد لا تُحصى. فأمّا إن كان ذلك بسبب من الله لا يملك معه الوالدان أمراً فلا رادَّ لقضاء الله، وأما إن كانا قادرَين فليجتهدا بولدين على الأقل، وليكونا متقاربَين في العمر فينشآ متفاهمَين (وإن اختلفا أحياناً) متحابَّين (وإن تجافيا في بعض الأوقات)، وتصبح التربية على الأبوين أيسر.

١٣

كن عادلاً مقسطاً بين أولادك، فلا تفضِّلْ واحداً على الآخر ولا تُحابِ أحداً على حساب أخيه.

إن الوالدَين قد يميلان بشكل لاإرادي إلى أصغر الأولاد، أو إلى الولد الأكبر (البكر)، أو إلى الصبي إذا كان بين أخوات بنات، أو إلى البنت إذا كانت بين إخوة ذكور. وفي كل هذه الأحوال يجب على الأب والأم أن يقاوما هذا الاتجاه القلبي وهذا المَيل اللاإرادي، وحتى إن لم يمكنهما القضاء عليه تماماً فإنّ عليهما ألاّ يسمحا له بالظهور وأن يحولا دون ملاحظته من قِبَل الأبناء.

إنّ التفضيل في المحبة بين الأولاد خطأ فادح، أما إظهار ذلك والتصريح به فهو خطيئة، بل هو جريمة لا تُغتفَر. ولا تعودُ أضرار التفضيل على المفضولين فقط بأن ينشؤوا ساخطين أو معقّدين، بل إن الضرر يكون أكبرَ من ذلك، حيث تسود بين الإخوة أنفسهم روحُ الحسد والضغينة ومشاعر الكره المتبادل.

١٤

التقليد (المُحاكاة) من أدوات التربية المهمة. إن الطفل يقلّد الكلمة فيتعلّم الكلام، ويقلّد الحركة فيتعلّم السّلوك، ويقلّد الصلاة فيتعلّم العبادة.

يبدأ الطفل بالتقليد منذ الشهر السّادس، ويكون تقليدُه تقليدَ حركات وأصوات أولاً، لكنه لا يلبث أن يصبح تقليد أعمال وعادات وعبادات. ويولع الطفل ولعاً شديداً بالتقليد في سنته الثانية والثالثة، ثم هو لا يتوقف عن اقتباس أخلاق والدَيه وتقمّص شخصيّتَيهما بقيةَ حياته. فليحرص الوالدان على أن يكونا قدوةً خيّرة ولا يكونا غير ذلك.

كن لطفلك قدوةً حسنة في مظهرك وسلوكك وتلفّظك وفي كل نواحي الحياة. وتذكّر أن طفلك إذا رآك تكذب على ضيوفك نشأ كذّاباً، وإذا رآك تغوص في الطعام بلا حساب نشأ شرهاً، وإذا رآك تتكاسل عن الصلاة نشأ مُعرضاً عنها... إنه مرآة لك فكن له خيرَ صورة.

١٥

اتفاق الوالدَين في تفاصيل التربية وفي كيفية التعامل مع الاطفال أمرٌ ضروري، فإنّ غيابَ مثل هذا الاتفاق قد يقود إلى نتائج عكسية لعملية التربية.

ليتفق الوالدان على الممنوعات والمباحات، فلا يكون أمرٌ مقبولاً من الأب مرفوضاً من الأم أو بالعكس. وليتفق موقفهما من تصرّفات الأطفال، فلا يبتسمْ أحدُهما في معرض تأنيب الآخر أو معاقبته، ولا ينقُض الزوج أمرَ زوجته، ولا تحتضن الأم الطفلَ وتراضيه إذا عاقبه الأبُ أو زجره.

ولكن حذارِ أن يصل هذا الاتفاق إلى درجةٍ تُشعِر الطفل بأنه منبوذ أو أنه وحيد أمام «هجوم كاسح مزدوج»، كأنْ يشترك الأب والأم كلاهما في ضربه وزجره وتأنيبه. المطلوب اتفاقٌ في المواقف والآراء وليس الإلقاء بالثقل الكامل على النفسية المرهَفة الحسّاسة للطفل فتُسْحَق لا قدّر الله.

١٦

قد تُخِلّ تدخّلات الأهل بتربية الوالدين في كثير من الأحيان، لا سيّما الأجداد الذين يقترن تقدمهم في العمر بفيض عواطفهم التي يسكبونها على الأحفاد.

ولا ريب أن على الوالدَين أن يحولا دون التدخل السلبي من أيٍّ كان، ولكنْ لن تكون مهمّةٌ كهذه سهلةً عندما يكون المتدخل هو الجد أو الجدة، لأن اعتباراتٍ كثيرةً تمنعك من الحد من مثل هذا التدخل.

إن الطفل سيعتاد عصيان أوامرك والالتجاء هارباً إلى جدّه إذا فسح له جَدُّه المجال ورحّب بالتجائه إليه في كل حين، وسوف تكون أوامرك وتوبيخاتك عديمةَ الفائدة إذا رافقَتها دائماً شفاعاتُ الجد أو الجدة أو سواهما من الكبار، فمن الضروري -إذن- أن تُفهِمَ الجميع (بالأسلوب المناسب ومع تقدير أعمار ومراكز الكبار خاصة) أنّك أرفق بابنك منهم وأن محبتك له تفوق محبتهم جميعاً له مجتمعين، ولكنّ ذلك أمرٌ والتربيةَ أمرٌ آخر.

١٧

تربية الأولاد من أكثر المجالات التي يميل فيها الناس إلى تقديم المشورات والخبرات المجانية. ولكن لا ريب أن لديك خطة تتبعها في تربية أبنائك، فكيف يسعك أن تتبع نصيحة كل ناصح وتجيب كل ذي رأي إلى رأيه؟ ثم إن الناس أنفسهم لا يتفقون، فهم -في قضايا التربية- شِيَع ومذاهب.

إذا كانت لك خطة معينة في التربية (ويجب أن تكون كذلك) فلا تَعْتَدْ أن تتلقى النصح من كل ناصح وأن تجعل أولادك حقل تجارب لآراء ونظريات الآخرين التربوية، وحافظ على خطك التربوي الذي أنت فيه.

ولكن لا يعني هذا أن تغلق أذنيك في وجه كل نصيحة (لكان كتابي هذا قد كسد إذن!) فإن من النصائح ما يفيد، وإن كثيرين يملكون في التربية خبرة تستحق أن تؤخَذ بعين الاعتبار، ففكّرْ بكل ما تسمع بعقل منفتح فخذ ما يناسبك ودع سواه.

١٨

موقفنا نحن الكبار من الخطأ ينعكس على أبنائنا بأعمق وأشد مما نظن.

إذا أخطأتَ -يا أيها الأب- أو أخطأتِ -يا أيتها الأم- في أمر لا يحتمل التأويل ولا التعليل (ومن منّا لا يخطئ؟) فليس أفضل ولا أعظم أثراً في تربية الأبناء من الاعتراف بالخطأ. فأنت -مثلاً- قد تتعجل قيادة السيارة ذات يوم فتخترق إشارة حمراء وأبناؤك معك في السيارة، فخيرٌ لك أن تبادر إلى إظهار الندم والاعتراف بالخطأ حتى لا يقود ابنُك سيارتَه (ذات يوم بعد سنوات) فيخالف كل القوانين ويتسبب في مآس وحوادث لا سمح الله. وقل مثل ذلك عن كل خطأ يقع منك.

أؤكد لك أن تصرفاً كهذا سيولّد في نفس طفلك أثرَين لا ينمحيان: أولهما احترامٌ لك لصدقك وصراحتك، والثاني شجاعة للاعتراف بالخطأ والإقرار بالذنب سيتحلى بها إلى الأبد.

١٩

ازرع في نفس طفلك حب القراءة منذ طفولته المبكرة، ثم نَمِّها أبداً من بعد.

يحسب بعض الوالِدين أن القراءة مهارة يتعلمها الطفل في المدرسة فلا يصنعون لأولادهم شيئاً قبلها، والصحيح أن عادة القراءة تُغرَس في نفس الطفل في السنة الأولى، فابدؤوا بغرسها منذ ذلك الوقت.

لتكن الكتب بعضاً من مقتنيات طفلك المفضَّلة حتى لَيَرغب فيها كما يرغب في اللُّعَب الجميلة، واختر لكل عمر ما يناسبه من كتب وقصص حتى تصبح للطفل مكتبة خاصة صغيرة في غرفته يفخر بها ويحرص عليها.

اشترِ له في أول الأمر كتبَ الأطفال الرضّع التي ليس فيها إلا صُوَر، ثم أحضر له القصص التي تملأ أكثرَ مساحتها الصورُ الملوّنة الجذابة وأقلَّها الكلماتُ المكتوبةُ بخط واضح كبير. وكلما كبر في السن صارت الصورُ أقلَّ وأصغرَ والكلماتُ أصغرَ وأكثر، حتى تختفي الصور ولا تبقى سوى الكلمات، فيألف القراءة إلْفاً متدرجاً وتصبح من أهم عاداته في الحياة.

العقاب

العقاب وسيلةٌ تربويةٌ كثيراً ما يُساء فهمها وكثيراً ما يُساء استخدامها، ولمّا كان ذلك يؤدي الى نتائج وخيمة على المدى القصير وعلى المدى الطويل فإن الفهم الصحيح لهذه الأداة التربوية من شأنه أن يوفر على الأبناء والوالدين جميعاً الكثير الكثير من الجهد والعناء.

ولأن كثيراً من الوالدين يَمضون في معاقبة أبنائهم مهما تقدم بالأبناء العمر، فقد آثرت أن أضيف هذا الموضوع إلى باب النصائح التربوية العامة التي لا تتعلق بعمر معين أو بفترة زمنية محددة، على الرغم من أن الصواب أنّ العقابَ أداةٌ تربوية مناسبة في سنوات العمر المبكرة للطفل، وهي أداة تتراجع أهميتها مع التقدم في العمر لحساب التربية بالثواب التي يُتوقع أن تكون الطريقةَ المثلى للأولاد الأكبر سناً.

وإني لأتمنى أن يصبر على قراءة هذا الفصل قراءةً متأنية كلُّ أبٍ وكلُّ أم، وأن يُقرَأ مرة بعد مرة حتى يصير «خلفية تربوية» مصاحبة لكل نصائح الكتاب، فإني ما أزال أغتمّ ويصيبني الأسى والهم كلما سمعت كيف يعاقب بعضُ الآباء أبناءهم الصغار، وإنكم لتسمعون من تلك القصص ما يذكّركم بمحاكم التفتيش!

فيا أيها الآباء والأمهات: رفقاً بهذه المخلوقات الرقيقة التي نسميها «الأطفال»، ولا تستهينوا بالعقاب فتستعملوه كيف كان، واعلموا أنه سلاحٌ والسلاحُ لا يُستعمَل إلا بحذر ومِران، فإن لم يكن ذلك صار أداة قتل وتدمير عاقبتُه خسرانٌ وأحزان.

* * *

٢٠

القاعدة الأولى أن العقاب مرتبط بالذنب ومترتّب عليه، فكيف يصحّ أن يُعاقَب طفلٌ لم يذنب؟

لو فعلت بطفلك ذلك لكنت ظالماً، وهو ظلم يحاسبك عليه الله في الآخرة. أما في الدنيا فإن الطفل الذي يتلقى العقاب ظلماً مرة بعد مرة سوف تتراكم في نفسه مشاعرُ المرارة حتى تورثه حقداً على الشخص الذي يظلمه بعينه أو على الناس كافة، وقد ينتهي به الأمر لأن يصبح هو نفسه من الظَّلَمة المعتدين.

تذكّر أن الظلم ممارسة يأباها ويبغضها الصغار كما يأباها ويبغضها الكبار، فاستشعر مرارتَها في ذاتك قبل أن تسمح لنفسك بأن تؤذي بها نفسية الطفل المرهفة. وإياك والظلم في العقاب؛ تأكد من ذنب الطفل تأكد اليقين ولا تعاقب ظلماً بشبهة أو بمجرّد الظن.

٢١

من الضروري أن يعرف الطفل لماذا يُعاقَب حتى لا يظن أنه يُعاقَب بغير ذنب أو بلا سبب.

كثيراً ما يعجز الطفل عن إدراك خطئه، وهو يجهل -غالباً- أنه قد ارتكب ما يوجب العقاب، فإن مداركه ليست مثل مدارك الكبار، فهو -مثلاً- لا يتمتع بعقلية انتخابية قادرة على التفريق بين شيء يحق له الإمساك به ورميه على الأرض (كلعبته الصغيرة) وبين شيء آخر لا يمكنه أن يفعل به ذلك (كالتحف التي تزيّن بها أمُّه البيت).

إذا اقترف الطفل ما يوجب العقاب فسوف تعاقبه، ولكن تأكد من توضيح العلّة التي عاقبتَه بسببها. واعلم أن طفلك قادر على فهم القوانين التي تضعها للبيت والحياة مهما يكن صغيراً إذا قُدِّمَتْ له بالشكل الذي يراعي عمره وإدراكه وعقله.

٢٢

كن عادلاً مقسطاً في أوامرك ونواهيك وعقوباتك.

إنّ من الخطأ الفادح أن تأمر الطفل بأمر لا يسعه تنفيذه فلا يستطيع ذلك فتعاقبه، أو تنهاه عن أمر لا مفرّ من وقوعه فيقع فيه فتعاقبه. وتذكّرْ أن من التكليفات ما يناسب عمراً ولا يناسب آخر، وأن من المحظورات كذلك.

ومن الخطأ ومن الظلم أن تعاقب الطفل قبل أن تتأكد من ذنبه، أو أن تحاسبه حساب ابن عشر سنين وهو ابن سنتين مثلاً، بمعنى أن عليك أن تراعي سنّه ومستوى فهمه واستيعابه وقدرته قبل أن تقرر معاقبته من عدمها، وقبل أن تقرر حجم العقوبة إن كانت لازمة.

ومن أبلغ الظلم أن تجعل أولادك مُتَنَفَّساً لغضبك، فتعاقب وتضرب وتشتم لا لذنب اقترفوه ولكنْ لأنّك غاضبٌ أو مكدَّر بسبب أمر لا شأن لهم به.

٢٣

قرر العقاب الملائم (نوعه ودرجته) قبل أن تشرع بالعقوبة.

كما أن الذنبَ درجاتٌ وأنواعٌ فيجب أن يكون العقاب كذلك، فلا يُعقل أن تعاقب على الذنب الصغير كما تعاقب على الذنب الكبير، ولا تعاقب على الذنب العارض كما تعاقب على الذنب المتكرر، ولا على ذلك الذي يأتيه الطفل على تردد وتخوّف كالذي يصرّ عليه ويتحدى به أوامرك ونواهيك.

وتذكّرْ أن ضرب الانتقام جريمة وأن الضرب مع الغضب خطأ فاحش. فتجنب بأي حال من الأحوال أن تعاقب الطفل بردّ فعل أو ثأراً منه لأنّه أزعجك أو آذاك أو أغاظك، ولا تعاقبه -كذلك- إلاّ وأنت مالكٌ نفسَك تماماً، فإذا غضبت فدع العقوبة في حالة الغضب حتى تسترجع هدوءك وسيطرتك على نفسك.

٢٤

صحيحٌ أن الضرب عقوبة مشروعة يحتاج إليها الوالدون والمربون، ولكن ما هو الضرب الجائز؟

إنه الضرب الخفيف الذي يسبب ألماً عارضاً فحسب، كضربة خفيفة أو اثنتين على ظاهر اليد أو على الفخذ، وليس هو أبداً ضربَ الجنون الذي يقوم به بعض الآباء، الضرب الشديد الكثيف العنيف الذي لا يفرّق بين يد ورجل وظَهر ورأس. لا، هذا ليس ضرباً تربوياً، بل هو إجرام وعدوان يستحق فاعلُه العقوبة.

إن الهدف من العقاب ليس التعذيب والانتقام، بل هو إيصال رسالة للطفل المعاقَب بأنه تجاوز الحدود، سواء بالامتناع عن تنفيذ أمر من الأوامر أو بالوقوع في محظور من المحظورات، وهذا الهدف يحصل بأقل الضرب وأخفّه، والأفضل أن يُستعاض عنه بأي عقوبة أخرى وأن لا يلجأ الوالدون إليه إلا إذا لم تبقَ وسيلةٌ ردع غيره.

٢٥

لم يكن العقاب المشروع يوماً للتعذيب، وإنما هو للتهذيب، فتجنب العقاب المؤذي، سواء أكان أذاه مادياً أم معنوياً.

على الأب والأم -إذا عاقبا- أن يميّزا بين العقاب المؤثّر والعقاب المدمّر، فالغرض من العقوبة أن تترك أثراً محدوداً يردع المخطئ عن خطئه حتى لا يعود إليه، والعقوبة القاسية قد تترك آثاراً مدمرة تشوّه جسم الطفل أو تشوّه نفسيته، وهي تشوهات قد لا يبرأ منها أبداً.

من الصنف الأول الضرب القاسي أو الضرب على أجزاء حساسة من جسم الطفل (كالرأس مثلاً)، فمثل هذه العقوبات قد تسبب عاهات دائمة. ومن الصنف الثاني الحبس في مكان مظلم أو التهديد برمي الطفل مع النفايات أو بإعطائه للشحادين (غريبٌ كيف يصدق الأطفال هذه الترّهات!) وهي عقوبات قد تنشئ طفلاً معقّداً جباناً تلازمه العُقَد والمخاوف إلى آخر عمره.

٢٦

يفقد العقابُ قيمتَه مع تكراره، فلا تكثرْ منه ولا تعاقب إلا عند الضرورة.

بعض الآباء والأمهات يحسبون أنّ عليهم معاقبةَ أطفالهم على كل هِنة وكل هفوة كما يعاقبونهم على عظائم الأمور، فتراهم في يومهم كله ينتقلون من عقاب إلى عقاب، من زجر إلى تهديد إلى ضرب إلى حرمان... فلا تكاد تمر ساعة من اليوم بغير عقاب أو تهديد بعقاب!

تذكر أن العقاب يغدو أقلَّ تأثيراً كلما أكثرت منه (شأنه شأنَ كل موفور رخيص أو نادر ثمين)، فلا تلجأ إليه إلا في حالات الضرورة الحقيقية وعلى تباعدٍ من الزمن. إنه وسيلة تربوية مهمة لا بد أن يحتاج إليها الوالدون في بعض الأحيان، ولكنه مثل الكيّ الذي قالوا إنه آخر الدواء، فلا تجعله الإجراء الأول الذي تفكر فيه كلما أزعجك طفلك.

٢٧

لا ينبغي أن يصاحب العقابَ أو التأنيبَ هياجٌ وصخب وصياح وصراخ، ولكنْ ليكن التعبير عنه بالنبرة الجازمة والإشارة القاطعة مع الهدوء وامتلاك النفس، فهذا هو العقاب الجادّ المؤثر، وهو أشد فعلاً وأبعدُ أثراً من «حفلة» عقاب صاخبة يُرغي فيها الأب ويزبد ويتطاير فيها الشرر من العيون كأنها فصل من معركة!

وتذكر أمراً على درجة كبيرة من الأهمية: الذنب المحدود له عقاب محدود، ويجب أن تكون آثارُه محدودةً كذلك.

عندما ينتهي العقاب يجب أن تعود الأمور كما كانت ويعامَل الطفل معاملة طبيعية، ولا ينبغي أن يستمرّ العقاب بالتوالد ساعات طوالاً أو أياماً متوالية (فلا يتوقف إلا حين ينساه الأب أو الأم) مما سيؤدي بالطفل إلى أن يعافَ البقاء معهما وإلى الميل إلى اعتزالهما والهرب منهما.

٢٨

يظن بعض الآباء أن العقاب كلمة مرادفة للضرب، فلا ترى الواحدَ منهم إلا ضارباً ولا ترى ولدَه إلا مضروباً.

ولكنْ مَن قال إن العقاب لا يكون إلا بالضرب؟

قد يكون الضرب مناسباً لطفل وقد لا يكون مناسباً لآخر، وقد يكون ملائماً في ظرف ولا يكون كذلك في سواه. وحيث إننا علمنا أن العقاب يفقد قيمته مع تكراره فإن من وسائل تجنب التكرار تغيير نوع العقوبة، فتصبح -بذلك- أدعى إلى التأثير.

يجب أن يكون الضرب أقلَّ العقوبات التي يلجأ إليها المربون، ولو أن أباً ضرب ولده أكثر من مرة في العام لقلت أنه مُكثر. فجرّبه مرة ودَعْه عشرين مرة إلى وسائل أخرى (كالحرمان من اللعب لبعض الوقت مثلاً)، وقد تكون أبلغَ عقوبة مجرّدُ العبوس في وجه طفل حساس أو تعبيرٌ مقتضب مثل: لقد أزعجتني بعملك هذا.

٢٩

وأخيراً تذكّرْ أن في حياة ولدك فترة زمنية يصلح أن يعاقَب فيها، أمّا في غيرها فلا.

إنّ الرضيع ابن الشهر والشهرين والثلاثة الأشهر لا يُعاقَب بحال لأنّه لم يفهم أصلاً. لا يبدأ الطفل بالفهم قبل الشهر السابع أو الثامن، وإذن فلا يجوز أن يبدأ العقاب قبل ذلك.

ثم تذكر أن من العقوبات ما يناسب عمراً دون سواه، وكلما ازداد الطفل تقدماً بالسن صار إلى العقوبة المعنوية أحوجَ منه إلى العقوبة البدنية، فأنت لن تؤثر في ابن سنتين لو أظهرت تأثراً وألماً من فعل قبيح فعله مثلاً، ولكنّ مثل هذا الانفعال سيكون مؤثراً جداً في ابن سبع سنين.

أما عقوبة الضرب بالذات فإن تطبيقها على مَن تجاوز العاشرة من عمره خطأ، فلا تجوز إلا في عظائم الأمور، وهي على من تجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة خطيئة تربوية كبيرة.

القسم الثاني

طفلك في عامِهِ الأوّل

٣٠

احرصي -يا أيتها الأم- على إعطاء طفلك الرَّضَاعة الطبيعية ما أمكن.

إن لهذه الرضاعة من الفوائد ما لا يُحصى، وقد ثبتَ -بأدلة كثيرة- أن الطفل الذي ينمو على حليب أُمّه يكون أكثرَ مناعة ضد الأمراض وأكثر استقراراً من النواحي الصحية والنفسية جميعها.

فإذا اضطررتِ إلى فطمه وإعطائه الحليب الصناعي (في الرضاعات الزجاجية) فاحرصي على أن تحتضنيه وأن تضمّيه إلى صدرك في أثناء الرضاعة، فإن الطفل يرضع مع الحليب العاطفةَ والحنان.

وإياك أن تضنّي على طفلك بوقتك فتوكلي غيرك بهذه المهمة (كما تفعل أمهات كثيرات)، فإن العلاقة الفريدة التي تربط الأم بوليدها ستكون -عندئذ- قد بدأت تتآكل بينك وبين هذا الطفل الرضيع.

٣١

تذكّروا أن المص عند الطفل غريزة.

لا تعوّدوه على «اللهّاية» فيتمسك بها ولا يستطيع الإقلاع عنها وتتسبب في اعوجاج أسنانه الأمامية، ولكن لا تقاوموا عادة مصّ الإصبع عنده إذا بقيت في حدود المعقول. واعلموا أن المص يزيد عند الجوع والتعب والإثغار (بداية ظهور الأسنان) وكذلك عند النوم.

هذا كله في حدود المعقول، فإذا استمرّ الطفل في مص إصبعه بعد ذلك بشكل دائم (ولا سيما بعد السنة الثانية من العمر) دلّ ذلك على اضطراب نفسي أو قلق أو حياء، فاجتهدوا في معالجة السبب لا النتيجة.

شاغلوا الطفل واصرفوا انتباهه عن مصّ إصبعه بلُعَب وأغراض زاهية جذّابة يمسكها في يده، ولكن لا تعاندوه وتجبروه على ترك هذه العادة بالقوة (بربط يده عند النوم كما يفعل بعض الوالدين مثلاً)، فإن فعلاً كهذا قد يزيد تعلقه بها وحرصه عليها.

٣٢

الأصل أن الطفل لا يبكي في شهوره الستة الأولى إلا لسبب. فإذا بكى ابحثوا عن السبب، فربما كان جائعاً أو متألماً في بطنه أو يشعر بالبرد أو بالحر. فإذا تأكدتم أنه خِلوٌ من كل الأسباب الظاهرة فدعوه يبكي لأن البكاء يوسّع رئتيه ويقوّي عضلات صدره ويطرد البلغم ويساعد على النوم (على أن لا يتجاوز بكاؤه القدر المعقول، فإنه سيدل عندئذ على مشكلة تحتاج إلى استقصاء وعلاج).

أما بعد الشهر السادس فيغلب أن يبكي الطفل البكاء الذي يسميه المربّون «بكاء الاختبار»، أي أنه يبكي ليتأكد من اهتمام والديه أو ليراقب ردّة فعل مَنْ حولَه أو ليحصل على ما يريد، فإذا حُمِل مرة بكى أخرى، وإذا تُرك علم أن البكاء ليس هو الوسيلة المناسبة لإملاء الطلبات.

فلا تحملي الطفل كلما بكى أو تهزّيه في مهده، فلا يسكت بعد ذلك إلا إذا هُزّ أو حُمل، ويكون هو الفائز -عندئذ- في هذا الاختبار!

٣٣

يبدأ الطفل بعد الشهر الثامن بطلب الأشياء التي يراها، وهو يحرص على العبث بكل ما تصل إليه يداه، وإذا لم يُعطَ ما يريد يعلو صوته بالبكاء.

دَعْه يبكي ولا تعطِهِ كل ما يريد، بل علّمْه أنه ليس كل ما يطلبه يُعطاه، فإنه سيَشعر -لو أعطيته كل ما يريد- بأنه متحكم بك، وسوف يتحول إلى إملاء الطلبات عليك بلا حساب. أما إذا رفضت طلبه وصبرت على بكائه فسوف يسكت لا محالة، ولن يلبث أن يدرك حدوده ويعلم أن أبويه يختاران ما يُجاب إليه من الطلبات وما لا يجاب.

إن بذور التربية الصحيحة تُبذَر في هذه الشهور الأولى، وعمادُها أن يفهم الطفل سلطةَ الأبوين وأن يدرك أن من الأمور ما هو مسموح ومنها ما هو ممنوع، فلا تميّعْ هذه المفاهيم ولا تؤجِّلْ تقديمها إلى الطفل فتجعل التربية أصعبَ وأشق عليك وعليه معاً.

٣٤

«لا» هي واحدةٌ من أهم المفردات التي يجب تقديمها إلى الطفل في هذه المرحلة، وكل تأخّر في تقديمها أو في تفهيم الطفل معناها من شأنه أن يزيد الأمور صعوبة عليه وعلى والديه.

سيهمّ الطفل ذات مرة -وقد بدأ يحبو- بالاقتراب من شيء قد يسبب له الأذى (مثل آلة كهربائية) أو قد يسبب هو له الأذى (كتحفة على طاولة) وسوف يمد إليها يده للإمساك بها، وعندئذ ستقولين: «لا».

ما هي هذه الكلمة الجديدة؟ عليه أن يفهم أنها تدل على النهي عن العمل الذي يهمّ به. أبعديه برفق في أول الأمر (مرة أو مرات)، وفي مرة رابعة أو خامسة شددي من لهجتك، وربما يفيد التقطيب والعبوس أيضاً. وأخيراً سيلمسها (لا بد أنه سيفعل، أنا واثق من ذلك) وفي تلك اللحظة اضربيه على يده برفق، ضربة خفيفة فحسب لا ضربة شديدة. وكرري هذا مرة بعد مرة حتى تصبح «لا» ذات مفعول نافذ.

٣٥

لا تعوّدي طفلك على النوم في غرفة نومك. إن نوم الرضيع قريباً من أمه ضروري في الفترة الأولى، ولكن هذه الحاجة تتراجع بسرعة شهراً بعد شهر، فأخرجيه إلى غرفته (أو إلى غرفة إخوته) عندما يصبح ابتعادُه عنك ممكناً.

هذا القرار يجب اتخاذه قبل نهاية السنة الأولى، لأن تأخيره إلى ما بعدها يصعّب تنفيذَه كثيراً.

ولا تستصغري الطفل، فإنه قد لا يفهم خصوصيات والديه في غرفتهما، ولكن ما يجري بينهما قد ينطبع في عقله الباطن ويحتفظ به في شعوره اللاواعي فيؤثر فيه عندما يتقدم في السن بعد ذلك.

ولا تنسي أن أطفالك الآخرين (إن كان للصغير إخوة) سيتساءلون عن سبب محاباة أخيهم والسماح له بالنوم في غرفتك، وقد يثير هذا التفضيلُ في نفوسهم مشاعرَ سلبية من الحسد أو الكراهية أو إحساساً بالظلم والانتقاص.

٣٦

لقد ثبت الآن أن الطفل يسمع الأصوات وهو في بطن أمه، وإن يكن سماعُه إياها بطريقة مبهَمة، كما أن الأصوات تتسلل إلى سمعه في شهوره الأولى من الحياة ولو كان نائماً.

فليتجنب الزوجان -من أجل ذلك- النزاع والخصام الذي تعلو فيه الأصوات ويكثر فيه الصراخ حين تكون الأم حاملاً (وهي وصية صالحة للتطبيق في غير هذه الحالة أيضاً، بل في كل الأوقات يا أيها الأزواج السعداء) أو حين يكون الرضيع نائماً، فإن هذا الأمر يترك في نفسيته آثاراً سلبية من الخوف والقلق في مستقبل أيامه.

ولهذا السبب ذاته اجهرْ بقراءة القرآن أمام طفلك الصغير وسمّعه تسجيلات التلاوة، فإنها تَقِرّ في قلبه وترسخ في أعماق نفسه وتنطبع في شعوره اللاواعي فتساهم في بنائه بناءً إيمانياً بعد ذلك.

٣٧

الطفل في سنته الأولى يخاف إلى درجة الذعر من بعض الأشياء غير المألوفة، كالماء (إنزاله في الحوض وسط الماء وقت الاستحمام)، أو الحركة المفاجئة (رميه في الهواء مثلاً)، أو الصوت العالي (كصوت المكنسة الكهربائية... وهي تفزعني أنا، فكيف بهذا الرضيع!)

وعلاج ذلك كله يكون بأمرين: أولهما التدرج في تقديم الأمر الذي يسبب الهلع إلى عالم الطفل حتى يألفه (في الحالة الأولى -مثلاً- توضع أرجله في الماء في المرات الأولى، ثم يغطس إلى وسطه بعد ذلك، وهذا التدرج يعوّده على الماء ويمنحه الاطمئنان).

الأمر الثاني (ويا له من أمر مهم) أن يحسّ الطفل بالأمان خلال هذه التجربة، فقد يكون مرور طيّارة فوقه مصدر رعب فظيع له أولَ الأمر، فإذا ضمّته أمه إلى صدرها زال أكثر هذا الرعب من قلبه. والغريب أن الطفل يكاد لا يستمد الأمان في تلك المرحلة من العمر إلا من والديه، ومن أمّه أكثر من أبيه.

٣٨

إذا وُجدت في بيتكِ خادمة (والأفضل أن لا تكون موجودة لأكثر من سبب) فلا تكلي إليها تربية ولدك أو العناية به أبداً، فإن عناية الأم بولدها تنشئ بينهما آصرة ورابطة عاطفية قوية، وترك تلك العناية إلى الخادمة يحوّل عاطفة الطفل إليها بدلاً من أمه. هذا فضلاً عن العادات السيئة أو التنشئة الفاسدة التي لا نأمن أن تقدمها الخادمة إلى الطفل ممزوجةً بالعناية المجردة به.

لا تتنازلي -أيتها الأم- عن واجبك لأي كان، فإن الأمومة وظيفة غير قابلة للتجيير. ولو أنك احتجتِ يوماً إلى معاونة في إطعام الطفل أو في تنظيفه مثلاً، فاستعنت ببعض إخوته أو أخواته الكبار أو بقريبة لك أو صديقة فلا بأس في ذلك إذا كان أمراً عابراً، أما أن تتركي لسواك العناية الدائمة بطفلك فهذا تفريط بأعظم عمل من أعمال حياتك، وهو من أكثر الأعمال فتكاً بعلاقة الأم بطفلها على مر الزمان.

القسم الثالث

طفلك في عامه الثاني

٣٩

إنها السنة الحاسمة في عمر طفلك والتي ستقرر إن كان سيشبّ ولداً طائعاً أو ولداً متمرداً، وأنت الشخص الذي سيقرر أي طريق من هذين سوف يسلك بإذن الله.

إن الوالدِين الذين يُلقون الأوامر إلى أبنائهم الصغار كيفما اتفق ثم لا يهتمون بمتابعة وتأكيد تنفيذها إنما يعوّدون أبناءهم على عصيانهم ويسهّلون لهم ذلك منذ صغرهم دون أن يدركوا ما يفعلون.

عوّدْ طفلك على تنفيذ أوامرك بأن تكون الأوامر واضحة وقليلة ومعقولة وقابلة للتنفيذ، ولا تتراخَ في تنفيذ تلك الأوامر، بل احرص على التأكد من تنفيذ كل أمرٍ توجهه إلى طفلك مهما بدا لك صغيراً أو تافهاً، فإن معصية الأمر الصغير تستوي -في عقل الطفل وإدراكه- بمعصية الأمر الكبير، والطفل الذي لا ينقاد لهذا الأمر لن ينقاد إلى ذاك.

٤٠

إذا صاح الطفل في وجهك أو ارتمى على الأرض يضرب بيديه ورجليه فهذه كناية عن سبّك وعصيانك، وهي دلالة على التمرد في أسوأ حالاته. إنها حالة لها ما بعدها في السنوات اللاحقة من العمر، وتغاضيك اليوم عنها (لأن الطفل صغير لا يعي فيما تحسب) سيُفلت من يدك الزمامَ إلى الأبد لا قدّر الله.

امنَعْ هذه الحركات (ولو بالضرب الخفيف)، وعوّده خلال تلك المرحلة من العمر على أن يطيع بغير اعتراض أو مناقشة، واحذر كل الحذر من التغاضي عن أي تمرد.

اجعل التنفيذ عند الطفل عادة من عاداته بأن تكون الأوامر جازمة وبصيغة الأمر الواضح مثل: «افعل» أو «هيا بنا نفعل كذا»، ولا تكن أوامرك له اختيارية: «هل تحب أن تفعل كذا؟» أو «هل تريد؟» حتى لا يعتاد فرض رأيه والتمرّد على أوامرك.

٤١

ولكن لا تحاول تحطيم إرادة طفلك حتى تجعله يُطيعك دائماً، ولا تجعله مذعوراً جباناً مسخاً لكي يكون مستسلماً لك طيّعاً في يدك.

يلجأ بعض الآباء أو المربين إلى العقوبات العنيفة والإرهاب في أبشع صوره ليضمنوا انصياع أبنائهم، وآخرون يذهبون إلى إرهاب أبنائهم وتخويفهم بقصص الجن والعفاريت وبغيرها من أدوات الترويع وأسباب التخويف.

لا تفعل ذلك أبداً، ولا تخوف الطفل بالحبس في الأماكن المظلمة أو الحرق بالنار (أعواد الكبريت مثلاً) أو أي عقاب جنوني آخر، ولكن خوّفه من عقاب واضح معقول، كالضرب غير المؤذي أو الحرمان من شيء معيّن مثلاً. وتذكّرْ أن المطلوب أن يكون الطفل مخلوقاً حياً متجاوباً معك مطيعاً لك، لا آلةً صَمّاء تضيفها إلى ما في بيتك من عُدَد وآلات!

٤٢

العِناد من أسوأ ما يمكن أن يملكه الطفل من طباع (ولا يملكه كل الأطفال لحسن الحظ)، ومعناه أن يتشبث الطفل بموقفه لمجرد المخالفة، وليس لرغبة حقيقية أو كراهية صادقة. والطفل العنيد يسهل اكتشافه منذ السنة الثانية من عمره، فإذا لم يهذَّب هذا الطبع فيه خلالها فقد لا يعالَج أبداً.

ذات يوم سيصرّ الطفل على المخالفة ويتشبث برأيه غيرَ عابئ بترهيب ولا مستجيب لترغيب، ولربما يكون الأمر الذي اتخذ موقفه هذا تجاهه تافهاً. لا تكترث بأهمية الأمر ولكن اهتم بموقف الطفل منه. إنه «اختبار» للوالدين، فلا تدعه يمر مرور الكرام ولا تسمح لطفلك بأن يصرّ على عصيانك ويتشبث بموقفه المخالف حتى لا يتجذر العناد ويغدو عنده طبعاً دائماً.

وتذكّرْ أن الصعوبة الكبرى هي في المصادمة الأولى، وسوف تغدو أقل مع كل جولة علاج لاحِق حتى تضمحلّ بالكامل إن شاء الله.

٤٣

يحبّ الطفل الحصول على أشياء كثيرة وامتلاك كل لعبة يراها، وهو لا يدرك أبداً خلال سنته الأولى من العمر معنى المُلكية وحدودها، فلا يفرّق بين ما هو له وما هو لغيره، ولا يفهم السبب الذي من أجله يحق له الحصول على شيء ولا يحق له الحصول على شيء آخر.

ولكنه يصبح مؤهَّلاً لفهم هذا المعنى في السنة الثانية من العمر، وعندئذ ساعده على إدراكه بأن تعطيه أشياء محددة وتضفي عليها صفة الملكية وتردد على مسمع منه: "هذه اللعبة لك".

إنه -في أول الأمر- سوف يطلب كل ما يراه ويمد يده الصغيرة إلى كل شيء حوله، فأجبْه مرةً وامنع عنه مرات، ولو بكى وغضب، حتى يعلم أن من الأشياء ما هو خاص به وأن منها ما هو خاص بالآخرين، وحتى يعلم أنه ليس كل ما يُطلب يُنال.

٤٤

أكثرْ أمام طفلك من ترديد ألفاظ مثل «بسم الله» و«الحمد لله» و«إن شاء الله» و«ما شاء الله»، فإنه يألف تلك العبارات ويصبح لفظ الجلالة قريباً إلى سمعه وقلبه، وتستقر في نفسه عقيدةُ وجود الله عز وجل وقدرته وقربه من خلقه بعمقٍ وقوة.

وإذا ألبست الطفل ملابسه أو حذاءه فليكن الابتداء معه باليمين، باليد اليمنى أو بالقدم اليمنى، فإنه يعتاد ذلك. واذا بدأ بالإمساك بالأشياء أو بالأكل فعوّده أن يفعل ذلك بيده اليمنى وقاوم لديه نزعة الاعتماد على اليسرى إن وُجِدَتْ.

إن الطفل لا يفرق في سنته الأولى بين يديه ويستعمل كلاً منهما بالتناوب، فإذا كانت السنة الثانية استقر على واحدة من اليدين، وقد ثبت أن مساعدة الوالدين من شأنها أن تعينه على الاختيار، بشرط ألاّ تكون بالقسر أو بالمنع، بل بالإيحاء والتشجيع.

٤٥

يُمضي الطفل معظم وقته خلال الشهور الأولى من عمره في النوم والأكل ولا يتفاعل مع الحياة إلا قليلاً، ولكنه لا يلبث أن يتغير تغيراً سريعاً خلال النصف الثاني من سنته الأولى، ويستمر تغيره بالتسارع خلال السنة الثانية، فيصبح كائناً متدفقاً بالحيوية والرغبة في التواصل مع العالم الخارجي.

تحدثوا مع الطفل في هذه المرحلة من عمره أطولَ حديث ممكن، فكلما تحدثتم معه أكثر سينمو عقله وتتطور قدراته بشكل أفضل. وشجعوه على طلب ما يريد بالكلمات بدلاً من الاستجابة لإيماءاته وهمهماته، وتحدثوا معه بجمل قصيرة مع تخيّر كلمات يُعاد تكرارها حتى يألفها ويبدأ بتقليدها.

وإذا نطق المفردات بلفظه الناقص المضحك فلا تعيدوها عليه كما نطقها بل كما تُنطَق أصلاً، فإنّ نطقه المحرَّف سوف يستقيم مع الوقت إذا استمر بسماع الصواب أو يتكرس بسماع الخطأ.

٤٦

أَثْنِ على طفلك كلما أحسن وأظهرْ سرورك بإحسانه، فإنه يتشجع على معاودة الإحسان.

إن الطفل الصغير توّاقٌ إلى رضا والديه ومحبتهما، فإذا ارتبط هذا الرضا وهذه المحبة منهما بالعمل الطيب فإنه سيحمل نفسه عليه ويدفع نفسه إليه.

ولكن لا تكثر من ذلك حتى يصبح شرطاً وردّة فعل منتظَرَة لكل عمل وقول، فإنك تخشى أن يُدمن استماع الثناء حتى يصبح عنده أمراً معتاداً فيفقد قيمته، إذ إن كلّ كثيرٍ وفيرٍ تقلُّ قيمته في عين الناس ويزهدون فيه. إنه قانون الحياة، وكلما قل الشيء وندر زادت قيمتُه وارتفعت أهميته.

أما إذا لم تظهر أي سرور لأي فعل حسن يقوم به الطفل ولم تُثنِ عليه أبداً فربما ملّ أو أُحبِط فلا يعود إليه بعد ذلك.

٤٧

إذا أتى للطفل أخ أو أخت خلال سنته الثانية فإنّ تلافي الآثار السلبية المتوقَّعة سهلٌ نسبياً. لا تهمل الطفل الأول على حساب الطفل الجديد، ولكن أيضاً لا توحِ للطفل القديم بأن الطفل الجديد لا يستأثر بأي اهتمام.

إن من الحكمة أن نقدم لطفلنا الأكبر فكرة وجود مَن يشاركه بالاهتمام والعاطفة بتدرّج، ولو احتاج الأمر أن نهمل الصغير (الوافد الجديد) لبعض الوقت في البداية. أما ما يفعله عامة الناس من إظهار كل اهتمام ومحبة للقادم الجديد ونسيان وإهمال الطفل الأكبر فإنه السبب في معظم ما ينشأ بعد ذلك من مشكلات.

أبعد الصغير عن الكبير إذا شعرت بأنه قد يؤذيه. ولا تعاقبه بشدّة تزيد حسده إذا ضربه أو آذاه، ولكن عاقبه بحزم يُفْهِمُهُ أن ما فعله خطأ لا يجوز، ثم احرص -بعد ذلك- على أن تُغدق المودةَ على الاثنين معاً في وقت واحد.

٤٨

المبالغةُ في اللهفةِ والإفراطُ في التعبير عنها وإظهارُ كل ذلك أمام الطفل يضرُّ به أكثر مما يفيد.

قد تضطر الأم لترك طفلها الصغير للدراسة أو للعمل، فلو أنها دأبت على إظهار الجزع والأسى في كل مرة تفارقه فيها، أو اللهفة الزائدة كلما لقيته من جديد، فإن من شأن ذلك أن يولّد في نفسه شعوراً من الخوف والقلق ربما ما كان ليتولد لولا ذلك.

إن الطفل يستمد شعوره بالأمن والسكينة ممّا يلاحظه على أمه من استسلام واطمئنان، وهو يشعر -بالمقابل- بالخوف والقلق إذا بدا عليها الخوف والقلق. إنه سوف يتساءل: لماذا سارعت أمه إلى ضمه وأمطرته بالقبلات حين عادت إليه بعد فراق ساعات معدودة وعيناها تفيضان بالدمع؟ لن يظن إلا أن لهذا القلق الذي يراه في عينيها سبباً يستحقه ويبرره، فلماذا لا يشاركها فيه ويشعر هو أيضاً بالجزع والهم والقلق وفقدان الأمان؟

٤٩

من الأطفال من يتعلق في هذه السن تعلقاً عاطفياً شديداً بأغراضه، بلعبة من لُعَبه مثلاً أو بالوسادة التي ينام عليها أو الملاءة التي يُغطَّى بها في الليل.

ومثل هذه العادة تغدو مُتعِبة جداً للطرفين: الطفل ووالديه، لأن شيئاً من هذه الأشياء لن يدوم أو يبقى مناسباً للطفل وهو يكبر، وسوف يعاني كلما اضطر إلى التخلي عن شيء منها ويُتعِب بمعاناته والديه، فقد يأبى النوم ليالي متعاقبة -مثلاً- لأن زجاجة الرضاعة التي اعتاد شرب الحليب فيها قبل النوم قد كُسِرت، أو لأن ملاءته القديمة اهترأت فاستُبدلت بها ملاءة جديدة!

من الخير للوالدَين أن يقاوما هذه العادة منذ بدايتها وألاّ يسمحا لها بأن تستفحل، وأفضل سبيل إلى ذلك هو المداومة على تغيير الأشياء التي تحيط بالطفل (أدوات النوم واللعب والطعام...) وإغداق العاطفة عليه حتى يحس بحبهما فيكون ارتباطه (بشكل معقول) بهما وليس بهذه الأشياء الجامدة.

القسم الرابع

طفلك بين الثالثة والسّادسة

٥٠

جذور الطاعة والانضباط تعود إلى السنة الأولى من عمر الطفل كما رأينا سابقاً، ولكن هذه السنوات الحاسمة هي التي ستقرر إن كان ولدك منضبطاً طائعاً أو متمرداً عاصياً لا سمح الله.

تشبّثْ بأن ينفذ ولدُك أوامرَك ولا تسمح بتمييعها والتملص منها أو التراخي في تنفيذها، ولكن اسمح (في هذه المرحلة، ولا سيما في آخرها) بقَدْر من الحوار حول أوامرك ونواهيك.

ولتتأكد دوماً من مناسبة هذه الأوامر لعمر الطفل، ولا بأس في أن تغلّفها ببعض المرونة، فقد تطلب من ابنك المبادرة إلى تنفيذ أمر وهو منسجم بلعبة مشترَكة مع آخرين، فلا بأس -والحالة هذه- أن تعطيه مهلة لإنهاء لعبته قبل التنفيذ. إنّ تنبيهاً أو إنذاراً مسبقاً للخروج نفسياً وعملياً مما هو منهمك فيه يساعده على التنفيذ بشكل أفضل.

٥١

كن صارماً عند الضرورة، ولكن كن عطوفاً طول الوقت.

إن الطفل مخلوق رقيق يستحق منك كل رفق ولطف وعطف ولين، فلا ترتكب تلك الخطيئة الكبيرة من خطيئات التربية أبداً: القسوة الشديدة والصرامة الدائمة حتى ليحسّ طفلُك بالخوف منك والنفور من مقابلتك. وتجاوز عن كثير من أخطاء الطفل، وميّزْ بين ما يرتكبه منها متعمداً وما يقع فيه لصغر سنه وقلة خبرته، وصحّحْ من تلك الأخطاء المهمَّ ثم الأدنى أهميةً بالرفق والمحبة. ولتكن البسمةُ أسبقَ إلى وجهك من العبوس، والرحمةُ إلى قلبك من القسوة، والعفوُ إلى فعلك من العقوبة.

لا تنسَ أن من الأخطاء ما يستوجب الصرامة ويستحق العقاب، ولكن تذكر أنّ مقابل الدقائق العابرة التي يستغرقها مثل هذا الأمر في اليوم الواحد ساعاتٍ طويلةً عليك أن تحشَوها بالرحمة والمحبة.

٥٢

ما هي القيم الصالحة والأخلاق القويمة التي تحب أن يتحلى أبناؤك بها؟ ستفكر -بالتأكيد- بالصدق والأمانة والاستقامة والشجاعة والكرم والإيثار والوفاء والعدل والرضا بقضاء الله وقدره، وبكثير غيرها.

إليك الخبر الجيد إذن: إنها السن المناسبة التي تُغرَس فيها هذه الخلائق في نفس الطفل، وإن خُلُقاً غُرِس في نفس الطفل في السنين الست الأولى من عمره لَيَتمكن منه حتى يصبح جزءاً أصلياً من شخصيته إلى آخر عمره.

داوم على تأكيد هذه القيم والأخلاق والمفاهيم ولا تملّ من التأكيد المتكرر عليها، واجعل من نفسك قدوة فيها، فالأخلاق لا تُكتسَب بمحاضرات عابرة أو بنصائح متقطعة، بل تكون بالتهذيب والتدريب المستمرَّين وبكثير من الصبر وكثير من الجهد وكثير من الوقت، ولا تنسَ أن القدوة الصالحة خيرٌ من ألف كلمة.

٥٣

قوّمْ أخطاء طفلك أولاً بأول وصحح ما في سلوكه من عيب. إنّ ترك العيب اليسير كما هو دون تقويم قد يتسبب في استفحاله واستعصائه على العلاج، فلا تأخذك الشفقةُ بالطفل لصغر سنه فتتجاهل أنانيته -مثلاً- لو أراد أن يأكل الحلوى كلها ولا يترك لإخوته منها شيئاً.

إن الطفل الأناني يكبر فيصبح شاباً أنانياً ثم رجلاً أنانياً ثم عجوزاً أنانياً... ولن يصلحه -عندئذ- أي جهد ولن يفيد معه أي تقويم. وقل مثل ذلك عن كل عيب من عيوب الطفولة.

ولكن وجّهْه وقوّمْه دوماً وهو معك بمفرده دون أن يراكما الآخرون، ولا يحمِلْك موقفٌ عابر على أن تقرّع طفلك أو تحاول تصحيح عيوبه في ملأ (ولا سيما أمام أطفال قريبين في السن منه)، فلن يؤدّي عملٌ كهذا إلى ما تريد من إصلاح العيب والقضاء عليه، بل ربما يؤدي إلى عكس ما تريد.

٥٤

قَوِّ في طفلك شعور الثقة بالنفس ولا تهدمه بالتأنيب إذا أخطأ في تكليفٍ كلّفتَه به، وأفسح له مجال التعلُّم. إن الثقة بالنفس تُبنَى على مرّ الأيام، ويا لها من مهمة شاقة! أما هدمها فيمكن أن يتم بقليل من التهكّم والتأنيب.

إن الصغير لا يتقن إنجاز الأشياء كما يتقنها الكبار، فكيف يُحاسَب محاسبة الكبار؟ كلفه بما يطيق وتابع التكليف بالتوجيه والتعليم والتدريب، فإنه سيخطئ -لا محالة- فتصحح خطأه، وسوف يكبو -بلا ريب- فتكون قريباً منه لمدّ يد العون وتقديم المساعدة.

وإذا كان يتردّد أو يخطئ في تنفيذ مهامّه أو يتلعثم في كلامه فإن هذا تعبيرٌ عن نقصٍ في ثقته بنفسه، فأعطه الفُرَصَ للخطأ، واستمع إليه -إذا تحدث- بإنصات، ولا تقاطعه مستعجِلاً ولا تنتقد ما قد يبدر منه من تلعثم أو تردد حتى يعود إلى ثقته بنفسه.

٥٥

احذر السخرية من الأطفال!

إنها ذلك الأسلوب المدمر الفعال الذي لا يخطئ، فاستعمله إن كنت واثقاً من رغبتك في تحطيم نفسية ومشاعر طفلك، واهجره إلى الأبد إن كنت غيرَ راغب في ذلك.

الجأ إلى أي أسلوب غير هذا: التقويم الهادئ، والتنبيه اللطيف، والتشجيع المستمر، وسوف يعود عليك كل واحد من هذه الأساليب بالخير العميم. فالطفل (مثلنا نحن الكبار) تدفعه العوامل الإيجابية إلى الأمام وتجرّه العوامل السلبية إلى الوراء، وما أسهلَ دخوله -عندئذ- في دائرة الفشل والإحباط المغلقة: يسخر الأب من الطفل لأنه نال التقدير الضعيف في المدرسة مثلاً، فيفقد الطفل الثقة بنفسه ويكره الدراسة، وتزداد سخرية أبيه منه فيزداد عنها بعداً وفيها فشلاً، وصولاً إلى قاع الفشل والإحباط.

٥٦

لا ترجع عن أمرٍ أمرتَ به أو نهيٍ نهيتَ عنه إذا راجعك ابنُك أو ألحّ عليك. إن هذا يفتح باباً لمساومات قد تطبع علاقاتكما إلى الابد.

إن الطفل يشعر بالشدة أو بالتساهل من نبرتك وتصرفك وطريقة أوامرك، فأشعره بالحزم في الأوامر ولا تُشعِره بالتراخي. والحزمُ لا يكون بحركات عسكرية ولا بالقسوة والعنف، وإنما يكون بالإصرار على تنفيذ الأمر الصادر كما هو.

وليس معنى هذا أن تكون متسلطاً (ديكتاتورياً) فلا تلتفتُ لرغبة الصغير ولا تحفل بمشاعره ولا برغباته. ولكنه (وهو في هذه السن) أصغر من أن يفكر أو يقرر، وأنت لن تأمره أو تنهاه إلا لمصلحة في الأمر أو في النهي، فإن كان تراجُعُك لتغيّرٍ بدا لك في هذه المصلحة فحَسَنٌ، أما إن كان إرضاءً للطفل وتجاوباً مع إلحاحه فخطأ لا يصح اقترافه من أب عاقل.

٥٧

إن من مبادئ التربية الكبرى طاعة الأبناء لآبائهم وانقيادهم إلى أوامرهم ونواهيهم، فإذا أصاب هذا المبدأَ خللٌ أو طرأ عليه ضعفٌ تعرضت عملية التربية كلها إلى الخطر.

إياك أن تعوّد طفلك على أن يطيعك بأجر: تعطيه مالاً أو تشتري له لعبة أو تأخذه في نزهة إذا أطاعك، فتصبح الطاعة مقايضة.

ولكن لا يمنع ذلك من أن تكافئه بين حين وآخر على طاعتك بأيٍّ مما يُفرحه، ويكون ذلك متقطّعاً في الزمان: تكافؤه يوماً وتمتنع من المكافأة أياماً، ومتنوّعاً في القيمة: كلمة لطيفة مرة وابتسامة ودّ في مرة ثانية، وهدية صغيرة في يوم أو نزهة قصيرة في يوم آخر...

وهكذا فإنه سيغدو مبادراً إلى الطاعة غيرَ منتظِرٍ أجراً ولا مترقّبٍ مكافأة.

٥٨

تذكّر أن العقيدة لا تُغرَس في نفس الطفل من خلال حصة أو درس منهجي، وإنما من خلال التفاعل مع أمور الحياة اليومية.

ذكّر طفلك -وهو ينمو في العمر- بالله، قل له إن الله يراقبه ويراه دائماً، قل له إن الله يعلم ماذا نفعل وبماذا نفكر، وإذا أحضرت إلى البيت طعاماً لذيذاً فقل: هذا رزقنا إياه الله. وإذا جلبت له لعبة جديدة فقل إنها مما أنعم به علينا الله. وإذا خاف فقل له: الله معك دائماً وهو أقوى من كل شيء وأقوى من كل الناس... واستمر في تكرار هذه المعاني.

إنّ الطفل عندما يسمع أمثال تلك العبارات كل يوم لمدة ست سنوات لن يحتاج -بعد ذلك- إلى أي درس أو كتاب ليقنعه بوجود وعظمة وقدرة وجلال ورحمة الله المدبّر الخلاّق.

٥٩

يحبّ الطفل أن يكون محبوباً، فاستغل هذا الميل واسْعَ لأن تجعل أعظمَ محبة يسعى إليها وأهمَّ رضا يطلبه هما محبة الله عز وجل له ورضاه عنه.

أظهر أمامه على الدوام حرصك أنت على أن يرضى عنك الله واجعل كسب محبة الله أعظمَ هَمٍّ لك، يقتدِ بك ويصبح هو كذلك.

ردد أمامه كل يوم مرات أن الله يحب المؤمنين. إن الطفل حساس تجاه كلمة الحب وهو يتجاوب معها ويحب أن يحبه الآخرون، فكيف إذا كان هذا الحب من الله الذي يرى كم يعظّمه أبواه (وهما في ذهن الطفل أعظم وأفهم المخلوقات) وكم يحبانه ويحرصان على طاعته وعمل ما يرضيه؟

وهو إذا تعلق بمحبة الله سيسعى إليها على الدوام، فيكفيك -من بعد- أن تقول له: "هذا عمل لا يحب الله مَن يعمله" حتى ينصرف عنه، أو "هذا عمل يحب الله مَن يعمله" حتى يُقبل عليه.

٦٠

هذه السنوات من العمر هي الأنسب لتقديم فكرة «الجنة» للطفل.

إنه في مرحلة يقبل فيها ما يسمعه من أبويه بغير إحساس بالشك وبلا أي نقاش، وما يتلقاه يستقر في أعماق عقله مشكّلاً أساساً لأفكار الغد. وكم سيكون سهلاً -في مستقبل الأيام- توجيه امرئ يؤمن بالجنة ويتشوق إليها إلى كل خير وصرفه عن كل سوء.

قولوا للطفل إن الجنة هي المكان الذي يذهب إليه المؤمنون الذين يحبهم الله. حدثوا الطفل الصغير عن الجنة على أنها ذلك المكان الجميل الذي يحصل فيه على كل ما يحب (ولو كان ذلك طعاماً أو لعبة أو أي شيء آخر)، وحدثوه عنها على أنها المكان الذي لا يخرج منه مَن دخله، وأنه حيث يذهب المؤمن حين يموت. إنها فكرة صغيرة ولكنها ستكون كبيرة الفائدة في تفهم الطفل الحسّاس لحدث كبير قد يشهده ذات يوم حين يُتوفّى شخص قريب منه.

٦١

أَفْسِح المجال للطفل للتعبير عن حيويته.

الحيوية أمر طبيعي في كل طفل، فإذا خلا منها كان بحاجة إلى علاج. فلا تقلقك أبداً حيوية طفلك ولو رأيتها زائدة عن الحد، ولكن لتقلق لو رأيته هامداً خامداً ولتسرع به (لو كان كذلك) إلى الطبيب.

ولكن تعبير الطفل عن هذه الحيوية يحتاج إلى تدخل منك بالتوجيه والتهذيب بين حين وحين.

إنّ الطفل عندما يكسر لعبته أو يقفز فوق الطاولة أو يسكب كأس الحليب على الأرض فهو إنّما يعبر عن حيويته بشكل خاطئ، لا تعاقبْه على ذلك بشكل يكبت الحيوية فيه، ولكن علّمه الطرق الملائمة للتعبير عنها واجعل له متنفّساً، وليكن ذلك بالاعتماد على اللُعَب التي تناسب عمره وبتخصيص مكان ملائم له من البيت يعلم أنه يملك فيه حرية الحركة.

٦٢

الجبن عاملٌ هدّام لشخصية الطفل الصغير الحساس، فلا تسمح له بأن يتسلل اليه.

لا تهزأ بمخاوف الطفل أبداً، بل تفهمها وعالجها وتخلص من أسبابها. وشجع الطفل على البوح بما يحس به من مخاوف والتعبير عنها وناقش معه أسباب الخوف حتى تزول. أما إذا أحسست بخوفه فنعَتَّه بالجبن أو انتقصت منه (ولا سيما أمام الآخرين) فإنه لن يفصح عمّا في نفسه بعد ذلك فيتبلور فيها الخوف، وسيدفن مشاعر الجبن في نفسه فيصعب عليه التخلص منها في المستقبل.

ومن أسباب الخوف ما يسمعه الطفل أو يراه من القصص الخرافية التي تنشّط «الخيالات المرعبة»، فلا تَحْكِ لولدك أمثال هذه الحكايات المخيفة (المملوءة بالوحوش والعفاريت والساحرات) وامنع الأفلام الخيالية التي تدخل في هذا الباب، أو داوم على التنبيه إلى خياليتها وعدم وجود شيء مما فيها في الواقع.

٦٣

أنت تتعامل مع طفلك الصغير الذي يعيش سنته الأولى في هذه الدنيا أو الثانية على أساس أنه مخلوق عاجز لا يملك القدرة على التفكير الكامل أو اتخاذ القرارات الصحيحة، لذلك فإنك تمارس عليه سلطة مطلقة وترعاه رعاية كاملة. وهذا صحيح.

غير أن الطفل ينمو وتنمو مداركه، وعليك أن تطوّر الطريقةَ التي تمارس بها السلطة عليه والأسلوب الذي ترعاه به تبعاً لذلك.

إن دماغ الطفل يستمر بالنمو خلال السنوات الست الأولى من عمره، وخلال هذه السنوات تزداد قدرته على التفكير والفهم والتعامل مع العالم الخارجي بشكل متدرج، وإن من الحكمة أن تتدرج أنت أيضاً في منحه حدوداً أكبر من الحرية والسماح لشخصيته بالنمو بنفس الدرجة التي ينمو بها جسمُه وينمو بها عقله.

٦٤

فإذا وصل الطفل إلى آخر هذه المرحلة فإن من الحكمة أن يكون قد اكتسب المهارات الأساسية في الحياة وبات قادراً على الاعتماد على نفسه.

علمه الاستقلال في شؤونه الخاصة والاعتماد على نفسه في قضاء حاجاته، من غير معونة منك أو بأقل القليل من المعونة: في اللباس (ارتداء بنطاله وتزرير قميصه وربط خيط حذائه)، وفي الطعام (اختيار طعامه وتعبئة صحنه والأكل بالملعقة وتنظيف أسنانه بالفرشاة بعد الوجبة)، وفي الحمّام (قضاء الحاجة والتطهّر منها وتنظيف يديه بعدها)، وفي كل نواحي الحياة.

وقد يفيد الانفصال المؤقت عن الوالدين ليوم أو بعض يوم، عند بعض أقاربه أو في بيوت بعض الأصدقاء مثلاً، ليعتاد البعد عن الوالدين، فهو سيذهب إلى المدرسة بعد قليل بعيداً عن رقابتك المباشرة.

٦٥

سيكذب الطفل مرة، وتصرفك إزاء الكذبة الأولى سيحكم ما إذا كان الكذب سيغدو عنده عادة أو أنه لن يعود إليه أبداً.

يجب أن تكون حكيماً فتتعرف إلى الكذبة مباشرة، ولكن لا تكن شاكّاً آخِذاً بالشبهة. تأكد من الكذبة أولاً، ثم حاول أن تبحث عن سبب الكذب: هرباً من عقوبة أم سعياً إلى منفعة؟ وهل هو متعمَّد أم عفوي؟

بعد ذلك اسأل الطفل وشجعه على أن يعترف بأنه كذب، فإذا اعترف فأظهر قدراً من التسامح في المرة الأولى (مع الحزم الكافي وبيان قبح هذا العمل وعقوبته عند الله)، ولكن لا تتسرع بالعقاب. إن العقاب الصارم وردّ الفعل الطائش سيعلمه أن يكذب في المستقبل بشكل أفضل وأن لا يعترف أبداً. أما إن عاد إليه مرة ثانية فلا بد من إجراءات أكثر صرامة لكيلا يصبح الكذب عنده عادة.

٦٦

الأسلوب الذي يعيش الطفل به في هذه المرحلة من عمره يحدد ما إذا كان سينشأ إنساناً مسؤولاً عن نفسه أو متواكلاً غير مسؤول.

إنه هو الذي نام في فراشه، فهو المسؤول -إذن- عن ترتيبه عندما ينهض منه صباحاً. وحيث إنه قد لعب بلُعَبه واستمتع بها فعليه أن يعيدها إلى صناديقها ولا يبقيها على الأرض حتى تطأها الأقدام فتؤذي وتؤذَى (يمكن أن يبدأ هذا الأمر بشكل تمرين مُسَلٍّ: هل تعرف كيف تصفف هذه القطع في الصندوق؟ لنضع هذه العروسة في فراشها لتمضي فيه الليل. هذه السيارات لا يجب أن تُترك في الطريق، بل لنضعها في محطة السيارات، إلخ).

لا تعوّد الطفل على أن يُخدَم من أول عمره، فلن يسعك أن تُمضي العمرَ ملاكاً حارساً له، ولو فعلت فلن تكسب سوى أن يكبر فيكون من العاجزين.

٦٧

يحتاج الطفل في هذه السنوات من عمره إلى مَثَلٍ أعلى يتعلّق به ويجنح معه بخياله. إن الإعلام المحيط بالطفل من كل الجهات يقدم له صورة مشوّهة لهذا المثل الأعلى (في صور أبطال الأفلام الكرتونية واللعَب الإلكترونية المستورَدة من الغرب والشرق).

فرِّغ من وقتك جزءاً خاصاً تتحدث فيه إلى طفلك عن رسول الله ﷺ، بطل الأبطال، ومغازيه وأخلاقه وقصصه، وكذلك عن سِيَر أصحابه والقادة العِظام: خالد وطارق والمثنّى وقُتَيبة وصلاح الدين، والمئات غيرهم من أبطال تاريخنا الغني بالبطولات.

وتذكّرْ أن الطفل يتعلق بالقصص وينسجم مع أخبار البطولة وتستفزه تفصيلاتها، فأكثِرْ في قصصك من الإشارات الحماسية مركّزاً على البطولة (فهي أكثر ما يؤثر في طفلك في تلك الفترة)، وسوف تكون أمنيّته أن يصبح مثل أولئك عندما يكبر في المستقبل بإذن الله.

٦٨

إذا أتى الطفل الثاني أو الجديد في تلك المرحلة فالمتوقع أن يثير الحسد في نفس أخيه بشكل جارف.

إن إشعار الطفل بأن أخاه الصغير أحب الى والديه منه خطأ فادح، أما التصريح بذلك على مسمعٍ منه فهو خطيئة، ومثل هذا التصرف الطائش من جانب الوالدين سيزيد من حسد الطفل ويقود الأمور إلى حيث يصعب علاجها.

تذكّر أن الحسد لا يُداوى بالتأثير العقلي والمنطقي وإنما بالتعويض عنه بشعور آخر، والإصلاح يقتضي التأثير على العاطفة، لا العقل. أغدق العاطفة على الطفلين كليهما: القديم والجديد، وامنحهما قدراً متساوياً من الاهتمام. ولا تجعل الطفل الجديد «شيئاً» مقدّساً فتمنع أخاه من لمسه أو حمله أو الاقتراب منه، مع الحذر والانتباه، فلا تتركه معه دون رقابة.

٦٩

قد يختلف الإخوة الصغار ويتخاصمون، وربما اشتد بينهم الخلافُ والخصام، ولكنهم لا يلبثون أن يصطلحوا ويحلّوا ما بينهم من مشكلات.

تذكر أن نفوس الصغار أكثر صفاء من نفوس الكبار وأن الصغير لا يعرف الكراهية والحقد كما يعرفهما كثير من الراشدين، فحاول أن تُبقي مشكلات الصغار بينهم دون تدخّل منك قدر الإمكان، فإنه أدعى إلى أن ينسوها بعد ذلك، أما تدخّل الكبار فإنّه غالباً ما يجرّ مزيداً من المشكلات ويُبقي في النفوس آثاراً سلبية.

على أن من واجبك أن تراقب من بعيد للتدخل عند الضرورة، فقد يتطور الخلاف إلى شكل يسبب الأذى لبعض الأطراف. ولكن ليكن تدخلاً حيادياً، وليكن غرضه تهدئة التوتر وإنهاء النزاع دون انحياز قد يقودك إلى ظلم أو بعد عن الحق لا سمح الله.

٧٠

يكره الطفل الشعور بأن سواه من الأطفال مفضَّلون لدى أمه أو أبيه عليه، وقد يقوده إحساس من هذا النوع إلى الظن بأنهما قد نبذاه أو أنهما في سبيل التخلي عنه.

فإن ظهرَت في طفلك -ذات يوم- صفةٌ لا تحبها أو أقدَمَ على تصرف كنت نهيته عنه فلا تلجأ إلى تلك الطريقة التي يتبعها كثير من الآباء والأمهات، فتُشعره بأنه ليس الولد الذي تتمناه أو أن سواه من الأطفال أفضل منه، أو تذهب أبعد من ذلك فتتمنى -على مسمع منه- لو أن غيره كان ولدك بدلاً منه!

لا تقارن طفلك بغيره ولا تسمح لإحساسٍ أن يتسلل إلى نفسه بأنك تفضّل غيره عليه، فإن ذلك قد يجعله حاقداً ساخطاً أو يفقده الثقة بنفسه أو يفقده الإحساس بالأمان، وقد يفقده الإحساس بقيمة التأنيب أو يدفعه إلى الانزواء.

٧١

لا تجبر طفلك على أكل طعام لا يحبّه، فإن ذلك قد يحمله على كره هذا الصنف من الطعام، بل هو قد يكرهه إلى الأبد. وتقبّلْ فكرة أن يحب طفلك من الأطعمة بعضَها ويكره بعضاً، كما تحب أنت منها أصنافاً وتكره أصنافاً. نعم، إنه صغير، ولكن ألا يملك الصغير حاسة تذوق كما يملكها الكبار؟

ولا تُتعب نفسك بحشوه بالطعام خوفاً عليه. واطمئن، فلا يموت طفلٌ جوعاً وفي مطبخ بيته طعام، ولكن إذا كان له صحن خاص ووضع فيه شيئاً من طعام فيجب أن يأكل ما وضعه هو فيه فإنه مسؤول عنه.

وعلّمْه أن للأكل وقتاً محدداً، فإذا انقضى فلا يعود إلى الأكل حتى الموعد القادم. وقاوم عادة أكل الحلوى والمثلجات (التي تُذهِب الشهية وتسوّس الأسنان) بين الوجبات وفي كل وقت من أوقات النهار، ولو أنه اشتهى الأكل في مثل تلك الأوقات فليأكل الفاكهة النافعة.

٧٢

علمي طفلك أن يعيد الأشياء إلى أماكنها بعد الفراغ من استعمالها، فهذه العادة البسيطة توفر عليكِ اليومَ وعليه في غدٍ كثيراً من الجهد والوقت.

واجعلي لكل ما يستعمله الطفل في البيت مكاناً (وهذا مما ينبغي أن يكون في أصل ترتيب البيت وقوانينه العامة: أن يكون لكل شيء موضع محدد وأن يعيد كلُّ واحد في البيت كلَّ شيء إلى موضعه بعد الفراغ منه).

فإذا استعمل الطفل فرشاة أسنانه بعد الغداء فليضعها في مكانها (على رفٍّ فوق المغسلة مثلاً) حتى لا يتحول البحث عنها إلى عملية عسكرية يتورط فيها أهل البيت كلهم حين يحتاجها بعد العشاء! وكذلك ليتعلم أن يعلق ثوب المدرسة في مكانه المحدد بعد العودة من المدرسة، ويضع حذاءه في خزانة الأحذية بجانب الباب، ويعيد لعبته إلى صندوق اللُعَب بعد الفراغ من اللَعِب بها، وأمثال هذا كثير.

٧٣

من الخطأ الفادح أن يتخاصم الوالدان ويختلفا ويتصايحا أمام الأطفال الصغار، فإن ذلك يجعلهم معقّدين حائرين خائفين من الحياة.

يبدأ الأطفال -في هذه السن- بالمشاركة العاطفية لوالديهم في أحداث حياتهم، فيتمزقون بين الأب والأم عند اختلافهما. فإذا أراد الأب أن يختلف مع الأم فخيرٌ لهما أن يفعلا ذلك في غرفة بعيدة عن الاطفال، والأفضل -قطعاً- أن يكون اختلافهما مؤدباً بغير سباب أو صياح أو صراخ.

إن صراع الأبوين ونزاعهما وتجريح أحدهما للآخر يهدم في نفس الطفل الإحساسَ بالأمان، فيعيش في ذعر وخوف دائمَين من افتراق أبويه وتهدم بيته، فانظروا أي ثمن غالٍ يدفعه أولئك الآباء الذين يسمحون لأنفسهم بسلوك كهذا السلوك!

٧٤

تدرّجْ في تعريف الطفل بأوجه الحياة المختلفة.

إنه يُمضي في البيت أكثرَ الوقت في أول سِني عمره وقد لا يخرج منه إلا قليلاً، ويغلب أن تقتصر الوجوه التي يراها على أهل بيته ومَن يزور الأسرة من الأقارب والأصدقاء أو مَن تبادله الأسرةُ منهم الزيارات.

ولكنّ في الحياة من الأماكن غير البيت ومن الناس غير الأسرة والأقارب والأصدقاء المقربين، فأطلعه على الحياة الحقيقية حتى يألفها وتألفه.

اصطحبه -بين حين وآخر- إلى متجر أو مخبز أو بقالة وأنت تشتري أغراض البيت، خذه معك إلى صلاة الجماعة في بعض الأوقات (على ألاّ يجعل من المسجد ملعباً فيؤذي المصلين)، وإذا ذهبت إلى محطة غسيل السيارات لغسل السيارة أو تغيير زيتها فليذهب معك، فإن هذه خبرة جديدة مثيرة في حياة الطفل. ومثل ذلك يقال عن زيارة مكتب البريد أو المطار أو حديقة الحيوان، إلخ. وليرافق كلَّ زيارة لمكان جديد بعضُ الشرح والتعريف.

٧٥

احرص على تعليم الطفل قواعدَ الأمان العامة منذ طفولته المبكرة ولا تملَّ تكرار التنبيه إليها، فإن تكرار تحذير الطفل ألفَ مرة من خطرٍ من الأخطار خيرٌ من الاستهتار مرة واحدة يعقبها حادثٌ أليم لا قدّر الله.

علموا الطفل الانتباه في خارج البيت عند قطع الطريق: يلتفت يميناً ويساراً ويتأكد من عدم اقتراب أي سيارة، ولا يقطع شارعاً عاماً بغير رفقة من كبير. وفي السوق: أن يبقى مع والديه ولا يبتعد أبداً، فلو ضاع فليثبت في مكانه ولا يتحرك ولا يلفت انتباهَ أحد بالصياح (سيبحث عنك أبواك وسوف يعودان إلى هذا المكان بالتأكيد). وداخل البيت: لا يستخدم السكاكين الحادة أبداً، ولا يُدخِل في فتحة الكهرباء شيئاً، ويبتعد عن الموقد المشتعل (ولا سيما إن كان على النار قِدر فيه سائل يغلي)، ولا يستعمل الآلات الكهربائية القاطعة... وأمثال ذلك كثير.

٧٦

يريد الطفل من أبويه شيئاً من الوقت وشيئاً من الاهتمام، ولكن الأبوين مشغولان دائماً، لذلك تراه يحاصرهما حيناً بالأسئلة، وقد يتصل حديثه ويطول، وربما قبض على كمّ أمه يمنعها من الحركة حتى تُتِمّ الاستماع إلى قصته أو تعلّقَ بأبيه فوَقَفه عن السير حتى يصغي إليه.

كن ذكياً حكيماً وأعطِ ابنك الوقت والاهتمام دون أن تضطره إلى استجدائهما وابتداع الوسائل لنيلهما، حتى لا يأتي وقتٌ ييأس فيه ويزهد في الحديث إليك، فتطلبه لتحدّثه الحديث القصير فلا تجد منه إصغاء ولا رغبة في السماع.

وإذا خاطبك فالتفِتْ إليه بالكلّية، وانظر في عينيه حين يتحدث معك، وأشعره بالمتابعة والاهتمام وأجب عن تساؤلاته، ولا تعتَدْ أن تهزّ رأسك وتردد كلمة «نعم» مرة بعد مرة وأنت لا تسمعه ولا تدرك ما يقول، فإنه سيلاحظ انشغال ذهنك وانصرافك عنه فينصرف -بدوره- عنك.

٧٧

اقرأ لطفلك منذ سنته الأولى، ثم ثابر على هذه العادة خلال السنوات اللاحقة إلى أن يبدأ هو بالقراءة بنفسه. واقرأ له في كل موضوع: عن الحيوانات والنباتات والأرض والكون والآلات والاختراعات، واقرأ له قصص السيرة وأخبار الصحابة وحدّثه عن المعارك والبطولات التاريخية، على أن تتخير من الكتابات ما أُعِدّ للأطفال وما يناسب القدرة المحدودة للصغير على الفهم.

اجعل من عادات اليوم المتكررة أن تختار كتاباً من مكتبة الطفل (ألم نتفق من قبل أن تجعل له مكتبة خاصة؟) أو اطلب منه أن يأتي بالكتاب الذي يريد أن تقرأه له، ثم اجلس معه لتقرأ له منه، فإن هذا الأمر يجعله محباً للقراءة فيألفها ويتعلمها بأسرع مما يتعلمها بقية الأطفال.

وكلما استمع الطفل إلى القراءة أكثر صار أسرعَ وأقدرَ على التحدث وزادت حصيلتُه اللغوية ونمت وتنوّعت حصيلته المعرفية.

٧٨

احكِ للطفل كثيراً من الحكايات (قبل النوم كل ليلة مثلاً)، واجعلها فرصة لتوصيل ما تشاء من الأفكار والقيم: الإيجابية ليحبها ويُقبِل عليها، كالصدق والصبر والإيثار وطاعة الوالدين... والسلبية ليكرهها ويبتعد عنها، كالطمَع والكذب والغش (والعادات السيئة أيضاً، كالتدخين، فما أحسنَ تحصينَ أولادنا منه منذ الطفولة المبكرة).

ما أشد تعلق الأطفال بالقصص والحكايات وما أبلغ تأثرهم بها! فلا تهدر هذه الأداة السحرية من أدوات التربية أو تتشاغلْ عنها، ولا تضنَّ بربع ساعة في اليوم تصرفها عليها، فإنك تصرف الساعات الطوال في أعمال أقل نفعاً وأدنى تأثيراً.

ولكن إياك وخزعبلات القصص الخرافية المرعبة والأساطير التي تجلب الكوابيس وتعطل العقل ولا تربي أي قيمة، بل تخيّر الحكاية المشوّقة الهادفة، فإن لم تجدها في السوق (ولا بد أن تجدها) فاخترع منها ما تشاء واقتبس مما تراه في الحياة وتسمعه من قصص وأحداث.

٧٩

الغيبة من الكبائر التي تتسلل إلى حياتنا دون أن نشعر، فيغتاب بعضنا بعضاً في كل يوم مرات ومرات ولا نكاد نحس بإثم.

فإذا سمع الطفل أباه وأمه يذكران بالسوء كل غائب فإنه سيألف هذا الأمر ويمارسه هو نفسه، ولكن هل تعلم أنه طبعٌ يعلّم طفلك الجبن والسلبية والهروب (مع ما يستوجبه من غضب الرب تبارك وتعالى)؟

إذا حدّثك ابنك عن عيب في صديق له أو قريب فشجّعْه على أن يقول ذلك له في وجهه (مع تخيّر اللفظ الرقيق والأسلوب الرفيق) في سبيل إصلاح هذا العيب، فهذه هي النصيحة المطلوبة في الشرع. وبيّنْ له أن ذكر الآخرين بما يسوؤهم في غيابهم أمر محرم وأن مَن فعله قلَّ حبُّ الله له، وهو أسلوب يُبقي على العيوب التي نكرهها في الآخرين ولا يساعد على إصلاح ذات البَين.

٨٠

النظافة من سِمات المسلم، فلا يصحّ أن يكون قذراً لا في بدنه ولا في ثيابه، وهي من أهم أسباب الصحة والعافية في الجسم والنفس.

والنظافة من الطباع التي إن لم يُرَبَّ عليها الطفل صغيراً لم يألفها كبيراً. فلقّنْه أساسيات النظافة وقواعدها منذ طفولته المبكرة. ولا تحسب أن الطفل أصغر من أن يتعلم هذه الأمور، بل أرشده إليها وحثّه عليها دائماً: علّمه أن ينظف يديه بالماء والصابون بعد قضاء الحاجة، وبعد تناول الطعام، وبعد دخول البيت من الخارج...

وعلمه استعمال فرشاة الأسنان بعد كل وجبة، فإنه يغدو صاحب فم نظيف طيب الرائحة ويوفر على نفسه عناء مداواة الأسنان وحفرها وحشوها، وهو واحد من أشد كوابيس الطفولة فظاعة (هو عندي كذلك، ولا أزال أذكر زياراتي المبكرة لطبيب الأسنان وقد مضى عليها اليوم أكثر من أربعين عاماً).

٨١

إذا كان الأدب والاحترام جزءاً من جو البيت العام الذي ينشأ الطفل فيه فسوف ينشأ مهذباً مفطوراً على احترام الآخرين بالضرورة، وسينشأ على خلاف ذلك في بيت لا يسوده الأدب والاحترام.

ليكن من المألوف أن يتبادل أفراد الأسرة العبارات اللبقة والمهذبة وأن يبتعدوا عن الغلظة والفظاظة. إذا طلب أحدٌ من أحدٍ شيئاً فليشفع طلبه بعبارة «لو سمحت»، وليكن لكل خير يقدمه فردٌ للآخر جزاء مثل «شكراً، جزاك الله خيراً». ولا تسمحوا بتبادل الشتائم والعبارات النابية بين الأولاد أبداً (ولكن لا بأس بعبارة ينفّس بها الطفل عن ضيقه ولا مخالفة فيها لأدب المسلم، كأن يقول الصغير للآخر: أنت مزعج، لا أحب عملك هذا، إلخ).

وتذكروا أخيراً -يا أيها الآباء والأمهات- أن احترام الأبوين كل منهما للآخر هو مفتاح الاحترام والاستقرار والعلاقات الراسخة المطمئنة في البيت.

٨٢

لمعظم الأطفال استعداد أصلي للإبداع والابتكار. والموهبة تنمو لدى معظم الناس بشكل خاص بين الثالثة والسادسة من العمر، إلا أن البيئة الأسرية والجو العام في البيت سوف يحددان ما إذا كانت هذه القدرات ستنمو أو ستخبو وتضمر.

علينا أن نهيّئ الجو المريح للابتكار في البيت، ولنشجع الطفل بإعطائه مزيداً من الفرص للإبداع بتوفير أدواته والتشجيع عليه (كأدوات الرسم والتلوين، والأنواع المختلفة من اللُعَب التي تدرّب العقل وتوفّر المجال للفكّ والتركيب والتأليف وإطلاق الخيال للطفل).

ولندعم ذلك كله بالثناء والتشجيع والتفهم والصبر على الأسئلة الكثيرة التي سنتوقع سماعها من الطفل. قد يزعج الأمَّ أو يضايق الأبَ كلُّ هذا في بعض الأحيان، ولكنه ثمن يسير لتنمية ورعاية بذور العبقرية المبكرة لدى أطفالنا الصغار.

٨٣

يشعر الطفل بالغضب أو بالحقد تجاه من يحس أنه يتعدى عليه أو يأخذ منه شيئاً من حقوقه، وهو يميل إلى مبادلة العدوان بمثله.

لا بأس بتقبّل «مشاعر» الأطفال العدائية في حالات الغضب أو المشادات، ولكن علينا أن نقاوم «السلوك» العدواني الذي قد ينشأ عن تلك المشاعر.

علّم طفلك التسامح والعفو مع وقوفك إلى جانبه واستعدادك لإنصافه، وأكّدْ له أنه يكسب بالتسامح محبة الله والدرجات العالية في الجنة، بالإضافة إلى العلاقات الطيبة مع الناس. ولكن تذكر أن الطفل يحتاج إلى تدريب ووقت لكي يصبح قادراً على السيطرة على انفعالاته، فاصبر عليه وأنت تداوم على توجيهه وتذكيره، واحذر أن ترغمه على التسامح أو التنازل عن شيء من حقه إلا برضاه الكامل، فالرضا النابع من القلب سيجعله متسامحاً حقيقياً، أما إكراهه عليه فسيزيده سخطاً وعدوانية.

٨٤

يتهاون بعض الآباء والأمهات بحاجة الطفل إلى البقاء بالقرب من والديه، فيبتعدان عنه كلاهما لساعات طويلة في اليوم الواحد، بل ربما لأيام عديدة.

إن الطفل يستمد شعورَه بالأمان من بقاء والديه أو أحدهما بقربه، وتركه لفترات طويلة يجعله في حالة من الخوف ويشعره بفقدان الحماية، بل إن فصله عنهما لهو أشد إيذاءً من الغارات والحروب (وُجِد في الحرب العالمية الثانية أن الأطفال الذين فُصلوا عن آبائهم في مدن بريطانيا ونُقلوا إلى أماكن هادئة في الأرياف قاسوا من المخاوف أكثر من الذين بقوا مع آبائهم تحت القصف في المدن!)

احرص على أن يكون ابتعادك عن طفلك لفترات قصيرة، فلا أنت تبقى بقربه أبداً كالملاك الحارس حتى يفزع من البعد عنك ولو لحظة، ولا أنت تفارقه الوقتَ الطويل حتى يصاب بالقلق وتسكن نفسَه المخاوفُ من أن يفقدك بشكل دائم.

٨٥

زد ثقتك بولدك وقدراته، وعبّرْ له عن ثقتك الكبيرة به، وسوف تجده أهلاً لها في أكثر الأحيان.

إن آفة أكثر الآباء أنهم يستصغرون أبناءهم دائماً (مهما كبر هؤلاء الأبناء) ويقلّلون من شأنهم ولا يظنون فيهم القدرة والكفاية، فإنهم ما يزالون يرونهم كما عرفوهم أول مرة: أطفالاً صغاراً عاجزين قاصرين.

ولكن الحقيقة أن قدرات الأطفال تنمو خلال السنوات السبع الأولى من أعمارهم بسرعة خارقة، ونحن نساعدهم على النمو السليم والنضج السريع إذا آمنّا بقدرتهم وأظهرنا لهم ثقتنا بهم.

زد الاحتمالات المتوقعة من الطفل وسوف يكون أكثر استعداداً لأداء ما يُتوقَّع منه وأكثر نجاحاً فيه. كلفه بأكثر ما يطيق من المهام والأعمال وراقبه ودربه، وسوف يدهشك مبلغ قدراته وكفايته.

٨٦

تعوّدْ على إطراء كل عمل صالح تراه من طفلك، وأثنِ على الإيجابيات كما تنتقد السلبيات. إن الخطأ الذي يقع فيه أكثرُ المربين هو أنهم يعاتبون ويعاقبون على الخطأ، أما الصواب فيحسبونه أمراً مفروغاً منه لا يستحق الثناء.

إن الطفل يتطلع إلى رضا الآخرين عنه، ولا سيما والديه، ويضيق بالنقد. وهو يتوقع المديح على الجهد الطيب الذي يبذله بنفس القَدْر الذي يتوقع فيه العقوبةَ على الخطأ، وإظهارُ عدم الانتباه لعمله الطيب أو الاهتمام به قد يحبطه ويصرفه عن تكراره.

يجب أن ينصبّ الإطراء على الجهد المبذول وعلى نتيجة العمل في آن معاً، فإن بذل الجهد بحد ذاته يستحق المديح (مثلاً: لو كان الطفل يدرس كثيراً فإنه يستحق المديح ولو كان لا ينال أعلى العلامات). وليكن إطراؤك صادقاً، فالطفل يميز الثناء الصادق ويدرك الفرق بينه وبين الإطراء المتكلَّف.

القسم الخامس

طفلك بين السابعة والثانية عشرة

(مرحلة الدراسة الابتدائية)

٨٧

من صفات الطفولة الاستسلامُ والاتّباع، وهما صفتان تنحسران كلما تقدم الطفل في العمر، فتجده يغدو أقلَّ تسليماً بما يؤمَر به وانقياداً لما يُطلَب منه، وقد يتساءل عن جدوى ومبررات ما يُكلَّف به.

والعبادات المحضة لا تقبل التبرير، فربما من أجل ذلك شُرِعت بداياتُها في الوقت الذي يبدأ فيه الطفل بالتمييز والإدراك الواعي، لكي يتدرب على العبادة ويألفها ويستسلم لها فلا تكون محلاً للنقاش من بعد.

شجعه على الصلاة معك في البيت أو في المسجد، ولتكن حكيماً غايةَ الحكمة، فلا توقظه من جوف النوم لصلاة الفجر، ولا ترغمه على الصلاة وهو متعَبٌ أو مستغرَقٌ في لعبة أو سواها من الأنشطة التي يستغرق فيها الصغار. ومثل ذلك يقال عن الصيام: شجعه وأثْنِ عليه إذا صام ولكن لا تجبره عليه ولا تقلل من شأنه لو بدأ اليوم صائماً فجاع أو عطش فقطع الصوم من وسط اليوم، واقدر لكل عمر قدره. وهذا المبدأ نفسه ينطبق على حجاب الصغيرات.

٨٨

ساعد ولدك على تنمية مهارة اتخاذ القرار بنفسه ولا تعلق قراره بك وبتفكيرك.

إنها مهارة يحتاج إليها في كل يوم مرات في كل أيام العمر، والأب الذي يعطل هذه الملكة عند ولده ويصرّ على أن يفكر بالنيابة عنه ويتخذ القرارات بدلاً منه يضر به غاية الضرر، لأنه سيتركه -ذات يوم- في لجّة الحياة وحيداً وقد أضاع واحداً من أهم أسباب النجاح فيها: القدرة على التصرف الصحيح واتخاذ القرار المناسب.

راقبه من بعيد وتدخل عند اللزوم بالنصح والتوجيه والترشيد والتقويم، ولكن لا تَلُمْ ولا تُحبِطْ.

شجعه على أن يتخذ القرار المناسب في كل مراحل حياته ولا تتدخّلْ أو تسعَ لتقديم النصح إلا عند الضرورة الحقيقية أو إذا طلب هو منك ذلك، وحفّزه على التفكير الطويل المدى ووضع الخطط لأيام حياته القريبة والبعيدة.

٨٩

السلطة التي تُمارَس على الأطفال بصورة مطلقة يجب أن تتحول تدريجاً إلى جوٍّ من النصيحة والمراقبة والمعونة، ولا سيما قريباً من نهاية هذه المرحلة.

إن الحرية تُمنَح بالتدريج حتى يتدرّب الطفل عليها ويألف تبعاتها وتكاليفها، فإذا وصل إلى البلوغ فقد صار حراً مكلَّفاً في ميزان الشرع، فهل يعقل أن يبقى تحت السيطرة المطلقة للوالدَين حتى ذلك الحين؟

تحوّلْ من السيطرة الكاملة إلى المراقبة من بُعد والنصح والتوجيه عند اللزوم، ولتقطع الشوطَ الأكبر في هذا الانتقال في السنوات الثلاث الأخيرة من هذه المرحلة من العمر. ولكن توسّطْ؛ لا تخنق ولدك بالقيود، ولكن لا تتركه أيضاً حراً بلا حدود. المطلوبُ تدرّجٌ يصل إلى قدر معقول من الحرية شبه الكاملة، المقيَّدة بقيود الشرع والعقل والعُرف، لأن الحرية المطلقة لا تكون إلا للبهائم والمجانين!

٩٠

نمِّ لدى ولدك القدرة على تمييز الصواب من الخطأ، فلن يمكنك أن تصحبه في كل خطوة من خطوات حياته لتبيّن له ذلك، وهو سيحتاج إلى الحكم على كل ما يقابله في الحياة ليحدد موقفه منه: رفضاً أو قَبولاً.

واحرص على أن يتمتع الولد بالقدرة على الحكم الصحيح على الأشياء والتمييز بين القِيم الأصلية والزائفة. وهكذا سيتعلم أن الملابس الثمينة والساعة التي تحمل أشهر الأسماء (وأمثال ذلك) لا تمثل إلا القِيَم الزائفة، أما الصدق والوفاء والإيثار والإخلاص (وأمثالها من الصفات) فإنها قيم أصلية ثمينة.

وسوف يحدد علاقاته ويبني صداقاته ويشق طريقه في الحياة -من بعد- على أساس الاختيار السليم الذي تغذّيه هذه المقدرة الثاقبة على التمييز بين الصواب والخطأ وبين الزائف والأصيل.

٩١

يحتاج ولدك -وقد تجاوز مرحلة الطفولة المبكرة- إلى ما يشغل وقته وإلى شيء مثمر يصرف فيه طاقاته. لقد كان اللعب الساذج يشغل أكثر وقته، ولكنه بدأ يكبر وتنمو قدراته العقلية وتتطور نفسيته وشخصيته، والحاجة الآن ملحّة إلى نشاط ممتع جديد.

إن الأب الفَطِن لا يترك هذه المسألة للظروف فينصرف الولد -لا قدّر الله- إلى ما يضر ولا يفيد أو إلى أمر فيه معصية، بل هو يستبق الأمرَ ويسعى إلى تنمية الهوايات الصالحة والتوجهات المفيدة، فيهيّئ أسبابها ويشجع أولاده عليها.

فكر دائماً في الهوايات والاهتمامات النافعة التي تَعود على الولد بالخير وتشغل وقته بالفائدة، كالقراءة والكتابة والتلوين والخياطة والتطريز والإصلاح والتركيب والرياضة والشطرنج والكمبيوتر، فكل ذلك لا يخلو من فائدة، فيدرب العقل أو الجسم أو يصقل مهارة مفيدة من مهارات الحياة.

٩٢

ولكن اللَعِب ما يزال يشكّل حاجة أساسية للطفل، وهو سيبقى كذلك إلى آخر هذه المرحلة من العمر (بل ربما لسنوات تالية أيضاً). امنحه الفرصة ليُشبِع هذه الحاجة، فإن اللعب يساعده على النمو النفسي القويم وعلى النضج الانفعالي السليم.

امنحه الفرصة ليختار ما يشاء من اللُعَب التي ينسجم معها (مع تدخلك بالتوجيه عند اللزوم) أو أحضر له أنت ما يناسبه منها، ووفّر له مكاناً ملائماً للّعب في البيت.

إن الناس قد اهتدوا -بتراكم الخبرة البشرية- إلى ضرورة تهيئة مكان في بيوتهم للنوم مثلاً، ولكنْ لم يَهتدِ كثيرٌ منهم إلى ضرورة تهيئة مكان خاص للأطفال ليلعبوا فيه، والنتيجةُ أن الطفل يلعب بين الكبار فيزعجهم ويزعجونه، وقد يُحرَم من اللعب لأن الأب أو الأم لم يصبرا على آثار اللعب (من ضجيج وفوضى). لا ترتكب هذا الخطأ وأفسح لأطفالك مكاناً مناسباً مستقلاً للعبه ونشاطه.

٩٣

لميول الأطفال دور كبير في توجيه حياتهم، وتظهر أهميتها بوضوح في اختيار دراساتهم الجامعية وفي توجيه حياتهم المهنية في المستقبل.

لاحظ نشاط ولدك وراقب ميولَه وطوّرها، وتذكّر أن للتشجيع والمديح أهمية بالغة في تطوير ميول الأطفال.

ساعد ولدك على استكشاف ميوله، فإن كثيراً من الناس (من الصغار والكبار على السواء) يجهلون ميولهم الحقيقية. أتح له فرصةَ تجربة الأنواع المختلفة من العمل ومعرفة الأشكال المتنوعة من أنشطة الحياة: حدثه عن الأعمال المختلفة في المجتمع وعن مختلف المهن النافعة ولا تحصره في عالمك المهني وعوالم أصدقائك المقرَّبين، وخذه في زيارات إلى مرافق متنوعة، كالمتاجر والمصانع والمستشفيات ومواقع البناء وغير ذلك، واسمح لاهتماماته بالنمو في الاتجاه الذي يحبّ لا في الاتجاه الذي تريد.

٩٤

علِّقْ قلبَ ولدك بالآخرة، وليكن من يقينيات اعتقاده ومن الأفكار الراسخة في عقله أن الخلود والبقاء من صفاتها، وأن الدنيا مؤقتة عابرة ولو طالت فيها الحياةُ بمقياسنا القاصر، فلا يجعَلْها أكبرَ همومه واهتماماته.

في هذه المرحلة من العمر تكثر طلبات الولد وترتقي نوعياتها، فبعدما كانت آماله محصورة في لعبة أو قطعة من الحلوى إذا به يندفع الآن وراء كل شيء (وخصوصاً ما يملكه أقرانه): من أجهزة سمعية وبصرية وإلكترونية ومعدات رياضية وساعات وأحذية وغيرها، ولا تزال تسمعه يردد هذه الكلمة: "أريد، أريد، أريد". فقل له إنه سيحصل على كل ما يريد في الجنة فليسعَ إليها، ولا يضيع في هذه الدنيا القصيرة مستقبله الحقيقي هناك. وشجعه على أن يتخلق بخُلُق أهل الجنة ويعمل ما يوصل إليها، واجعل أكبرَ همّك ومنتهى أملك أن يصبح الوصولُ إليها أكبرَ همّه والفوزُ بها منتهى أمله.

٩٥

طوِّرْ لدى ولدك موهبةَ التفاؤل والاستمتاع بالحياة.

إنك لن تستطيع منحَه كل ما يحبّ ولن توفر له كل ما يريد مهما كنت غنياً ومهما أوتيتَ من مال، فساعده على امتلاك أعظم ثروة في الدنيا: القناعة والاستسلام لقضاء الله بنفس راضية وقلب مطمئن. وإذا علمت أن السعادة حالة عقلية وليست ظروفاً مادية فإنك ستنجح في نقل هذه الفكرة وإيصالها إليه.

إن التفاؤل بالحياة من أهم أسباب النجاح فيها، فلا تحرم ولدك من هذا السلاح الفعّال وهذه الأداة النافعة. وعليك أن تكون (أنت نفسك) من المتفائلين المستبشرين الذين يتوكلون على الله حق التوكل ويرضون -سعداء مطمئنين- بما يأتي به الله، ثم علم ولدك كل ذلك ودرِّبْه على هذا الخلق العظيم.

٩٦

علِّمْ ولدَك فنَّ الاهتمام بالآخرين والرغبة في مساعدتهم، وحارب أي اتجاه أو ميل للأَثَرة والأنانية في شخصيته.

أكثرُ الناس ينغمسون في متعة الأخذ والتلقي وقليلٌ منهم من يدرك متعة العطاء، فساعد ولدك على أن يكون من هؤلاء القليل. ساعده لكي يدرك جمالَ العطاء والمتعةَ العظيمة في مساعدة الناس، ولكي يبصر ما أعدّه الله من أجر عظيم في الآخرة لمن يصنع الخير للآخرين.

وعلمه ذلك الخُلقَ الواحدَ الذي لو تخلّق به الناس لكَفَوا أنفسهم ثلاثة أرباع الخلافات على ظهر هذا الكوكب: «أن يحب للناس ما يحبه لنفسه»، والخُلقَ الآخَرَ الذي به ينتهي الربع الباقي من الخلافات: أن يحسن الظن (من غير غفلة) ويبحث عن العذر قبل أن يبحث عن الإدانة لكل واحد من الناس.

٩٧

اجعل التعاون في إنجاز أعمال البيت قانوناً عاماً، فهو ليس مطعماً ولا فندقاً تُقدَّم فيه خدمات الطعام والمنام، ولا هو مصبغةٌ تُنظَّف وتُكوى فيها الثياب... ومَن هم العاملون إذن؟

على كل فرد أن يساهم في عمل البيت ويتحمل قسطاً من مؤونته، صبياناً وبناتٍ على السواء. فالإنصاف أن توزَّع الأعمال العامة على الكل بالتساوي (وهي تشمل أعمال الترتيب والتنظيف اليومية التي تجعل المنزل مكاناً صالحاً لسكنى البشر)، وبعد ذلك يمكن أن يُسنَد إلى الصبيان من المهام ما يهيئهم لمسؤولياتهم المستقبلية (فيكلَّفون بشراء الأغراض من البقالة مثلاً) والبنات كذلك (فربما تكلَّف الواحدة منهن بإعداد وجبة العشاء).

إن في هذا النظام تكريساً لروح التعاون وتأكيداً على فريضة البرّ بالأم التي لا تجد مَن يعاونها في عمل البيت في كثير من بيوت المسلمين!

٩٨

الطفل الذي لا يشعر بالانتماء القوي إلى بيته ولا تُشبَع حاجاته النفسية فيه يبحث عن الانتماء والإشباع في غيره من الأماكن: ربما في بيوت بعض الأقارب أو مع الأصدقاء، أو ربما في الطريق!

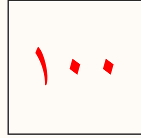
قَوِّ انتماء ولدك إلى البيت، وتذكر أن الأولاد ينتمون عندما يسهمون ويشاركون، وهكذا فإن الآباء يغذّون وينمّون الشعور بالانتماء إلى البيت إذا ما شجّعوا الأطفال على أن يشاركوا في حياة الأسرة، ليس فقط في العمل المنزلي (وهو ضروري) ولكن في المشاركة في سياسة المنزل كذلك. ما المانع أن يشكّل الأبوان مجلسَ إدارةٍ للبيت يضم الأبناء (حتى الصغار منهم) ويُمنَحون حق المشاركة في وضع الخطط ومناقشة التنظيمات، كتوزيع المسؤوليات والأعمال في البيت وبرمجة الأنشطة التي يمكن للأسرة القيام بها في آخر الأسبوع والتخطيط لبرنامج الإجازة السنوية على سبيل المثال؟

٩٩

لقد بدأ الطفل بالذهاب إلى المدرسة ومخالطة الغرباء من الناس، وقد يسمع أو يرى ما كنت تصرفه عنه وتحميه منه.

عوّده على الصراحة الكاملة معك وتعود على أن تصغي إليه، وشجعه على أن يصارحك بأفكاره ومشاعره وأن يحدّثك بما يسمع وبما يرى، واسمح له بالتعبير عمّا في نفسه من غير أن تضع حدوداً مصطنَعة لما يليق وما لا يليق، فإنه سوف يحتفظ لنفسه بالمعلومة في المرات المقبلة لو فعلت ذلك، ويوماً بعد يوم ترتفع بينكما الأسوار حتى ينغلق عنك بالكلّية ويتبادل القصص مع أقرانه أو إخوته في معزل عنك.

إن الانفتاح والاسترخاء في الاستماع لكل ما يأتي به ولدُك من قصص سيعاون على أن تظل متصلاً بعالمه مطّلعاً على ما يدور فيه للتدخل -عند الضرورة- بالحكمة والنصيحة.



لن يلبث هذا الغلام أن يصبح رجلاً، فأدخِلْه في الحياة العامة وعرِّفه على دنيا الكبار (بما فيها من تنوع وخبرات) بشكل متدرج.

أرسله وحدَه إلى البقالة القريبة (مع مراقبته من بعيد)، وكلِّفْه بالتفاوض مع البائع مرة وباختيار الأصناف التي ستشتريها في مرة أخرى، وعلمه أن يردّ على الهاتف وأن يسجل معلوماتٍ عن الذين يتصلون بك في غيابك، وإذا جاءك في البيت ضيوف فليدخل هو عليهم بالضيافة (على أن تعلّمه آدابها وأصولها حتى لا يرتبكَ فيرتكبَ خطأ يحرجه ويحرجك)... ومثل هذا كثير كثير.

أما القاعدة الأهم في كل ذلك فهي أن تقبل أداءه فلا تلومه على النتائج أياً كانت. إنْ أصاب وأحسن في أي تكليف فشجعه وأثنِ عليه، وإن أخطأ فبيِّنْ له وجهَ الصواب وأرشده إلى ما يفعله في المرات التالية.

١٠١

يقولون أنّ الصاحب ساحب، وهذا القول صحيح.

لقد بذلتَ مع ابنك -حتى هذه اللحظة- جهداً عظيماً وراقبته ورافقته وهو ينمو ويكبر شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام. فهل ستقبل أن يضيع جهدُ السنين الآن بسبب صحبة سيئة لا سمح الله؟ راقب صداقات ولدك، تعرف على أصدقائه واعرف بيئاتهم، وأوصله إلى الزيارات بنفسك وتعرف على عائلات الأصدقاء، وتخير له الصالحين.

إن الصداقات قبل العاشرة مؤقتة لا عمق فيها، ولكنها يغلب عليها -بعد ذلك- العمقُ والدوام والتأثير المتبادَل. فساعد ولدك على تكوين صداقات صالحة يكون فيها مؤثراً أكثرَ من كونه متأثراً. نعم، إن العلاقات البشرية تبادلية، ولكن المطلوب أن يكون هو الطرف الأقوى في هذه العلاقة لنضمن ألاّ يسحبَه الطرفُ الآخر إلى أي سوء لا سمح الله.

١٠٢

قد يعود الطفل من المدرسة ذات يوم فتجد الأم معه شيئاً لا يخصه وتكتشف أنه قد أخذه من جار له أو زميل له بغير علمه... أي أنه سرقه!

تذكري أن مفهوم السرقة بالنسبة له ليس كما هو بالنسبة إليك. لقد خرج لتوّه إلى الحياة العامة بعدما اعتاد لسنوات طويلة -وهو في البيت- أن يمدّ يدَه إلى ما يريده فيحصل عليه.

وضّحي له مبادئ الملكية وقدمي له مفهوم السرقة والاعتداء على أملاك الآخرين بغير رضاهم، وأكّدي أن عملاً كهذا من الأعمال التي لا يعملها المسلم ولا يحبها الله ويعاقب عليها القانون.

عالجي الموضوع بالحكمة والحزم مع الرفق واللين، وألزميه بأن يعيد الشيء إلى صاحبه دون أن يرافق ذلك أيُّ إذلال أو عقوبة، مع الوعد الأكيد بألاّ يكرر مثل هذه الفعلة من بعد.

١٠٣

يزعم بعضُ علماء النفس أن الكآبة مرضٌ لا يصيب الصغار، ولكنّ الثابت الآن أن الصغار يصابون بالاكتئاب كما يصاب به الكبار.

إذا رأيت طفلك وقد بات مهموماً حزيناً فتقصَّ الأمر ولا تتهاون فيه، وعالج السبب برفق وبالأسلوب الصحيح قبل أن يستشري الأمرُ إلى حيث لا علاج!

إن بعض أحزان الطفولة وإحباطاتها ترافق المرء طول حياته فتحرمه من المشاركة الفاعلة في الحياة، وقد ينشأ بعضُها من أسباب قوية جارفة لا يجوز إهمال علاجها أو تأخيره (كالشعور بالنبذ أو الفشل أو بسبب سقوط الطفل ضحيةً لعدوان بعض زملائه في المدرسة).

في كل الأحوال عالج السبب وتابع العلاج بصبر وأناة حتى تتأكد من تعافي ولدك من مشاعر الحزن والاكتئاب.

١٠٤

في آخر هذه المرحلة أو في أعقابها (وفي وقت أبكر قليلاً عند البنات) سيأتي أهم تطور في تاريخ حياة ولدك: البلوغ.

لا تصنع كما يصنع أكثرُ الوالدِين الذين يتهربون من إعداد أولادهم لهذا التحول ويخجلون من إمدادهم بما يحتاجون إليه فيه من معلومات، بل أعدّ ولدك الإعداد المناسب لهذه المرحلة، ولا تتركه نهباً للظنون والتساؤلات أو مرتعاً للأقران ولأصدقاء المدرسة ليغذّوه بما يناسب وما لا يناسب وبما هَبّ ودَبّ من الأفكار والمعلومات.

لا تخجل من تقديم هذه المفاهيم، ولكن لا تبالغ في الإفاضة فيها بغير داعٍ كذلك. قدمها بالأسلوب المناسب الذي يجيب عن التساؤلات المهمة، والذي يزوّد الولد بما يلزمه العلمُ به شرعاً. وليقم الأب بالتحدث في ذلك إلى الصبيان والأم إلى البنات فإنه أسهل وأفضل.

طفلك في المدرسة

١٠٥

اليوم الأول في المدرسة واحدٌ من أهم الأيام في حياة الطفل، فلا تهمل الاستعدادَ له والتعامل معه.

من الحكمة أن تبدأ بالتمهيد لهذا اليوم قبله بشهور، على أن تكثّف الحملة في الأسابيع الأخيرة: تحدّثْ عن المدرسة بإيجابية، وارسم في خيال الطفل صورة تفصيلية لها حتى لا يفاجَأ بها. ولتكن واقعية، فلا تحاول أن تزيّن الصورة فيتخيل المدرسة كأنها من «مدن الملاهي» ثم يُصدَم بحقيقتها حين يصل إليها.

ولا يذهب في اليوم الأول وحدَه، بل يذهب معه أحد الوالدين ليمنحه الشعور بالأمان، ولا بأس بترتيب خفيّ مع المدّرس أو الإدارة لتقديم بعض الهدايا في الأيام الأولى حتى يغدو أكثرَ محبةً للمدرسة وشوقاً إليها. ومن الأفضل -قطعاً- أن يدخل سنة أو بعض سنة في مدرسة الروضة قبل دخول المدرسة الابتدائية، فإن في ذلك أفضل تهيئة نفسية وعملية لهذه النقلة في حياته.

١٠٦

في بعض الحالات لا يكون من الحكمة أن ترغم ابنك على الذهاب إلى المدرسة، ولا من علامات النظام كذلك: إذا كان مريضاً مثلاً، وإذا تأخر في النوم بشكل فاحش في الليلة السابقة لسبب خارج عن إرادة الأسرة، وإذا كان ذلك اليوم مما يسمونه «يوماً مفتوحاً» لا دراسة فيه وهو غير راغب في الذهاب، وفي حالات الطوارئ مهما كانت.

كن مرناً بحيث لا ترغمه على الذهاب إلى المدرسة لو كان لعدم الذهاب سبب واضح، أو لو كان -في بعض الأيام القليلة- كارهاً الذهابَ غاية الكره (حتى ولو لم تعرف السبب). ولكن لا تقبل أبداً أن يصبح التخلّف عن المدرسة عادة. إن الغياب مرة في الشهر لا يصنع مشكلة، أما التعذر عن الذهاب في كل أسبوع مرة فأمر غير مقبول، واستجابة الوالدين له ستجعل الالتزام بالنظام المدرسي أشقَّ وأصعبَ على الصغير.

١٠٧

لا تجعل الواجبات المنزلية كابوسَ الحياة للطفل ولا تشارك في سياسة تعقيد الطفل وتنفيره من المدرسة (التي تمارسها بعض المدارس التي تفتقر إلى فقه التعليم).

تذكّرْ أن ولدك يمضي في المدرسة سبعَ ساعات أو أكثر، وهو يحتاج إلى استجمام. لا تَحْمله على البدء الفوري بالواجبات بعد الغداء مثلاً، فمن حقه أن يحصل على بعض التسلية، ولا تزحم يومَه بالواجبات (حتى ولو كان ذلك ما تراه المدرسة).

طفل السنة الابتدائية الأولى -مثلاً- لا يجوز أن يُكلَّف بأكثر من نصف ساعة في اليوم من الواجبات المنزلية، وهذه المدة تتدرج إلى ساعة أو أكثر قليلاً في آخر هذه المرحلة. أما أن يُحكَم عليه بست ساعات واجبات في البيت عدا السبع الأولى في المدرسة فهذا حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة. اتقوا الله!

١٠٨

إذا احتاج الطفل إلى مساعدة فقدمها له، وتذكر أن مناهج المدارس قد فُصِّلت وصُمِّمت لتناسب متوسط ذكاء وقدرات الأطفال، وقد يكون ابنك أقلَّ من المستوى العام فيتعبه الدرس أكثرَ ممّا يتعب سواه. لو كان الحال كذلك فلا تتجاهل هذه الحقيقة ولا تعتبرها إهانة، فإنّ تجاهلها قد يزيد الأمور صعوبةً ويُراكم التقصير الذي قد يبدأ لدى ولدك بشكل يمكن تداركه في البداية. عاونه في تبسيط الصعب وتقريب المُشْكل، وتأكد من فهمه كل ما يدرس، ولكن إياك أن تحلّ له واجباته فتعلمه الاتكالية والغش والتزوير.

ولا تهتم كثيراً بالعلامات، أو تُدخل الولد في دوامة الفشل بأن تنعته بالخيبة، أو تتهدده بالعقاب إذا لم يكن من المتفوقين، أو تمارس عليه عقوبة فعلاً، فسوف يزداد خوفه وتوتره ويصعّب مثلُ هذا السلوك الأمورَ فتزداد النتائج سوءاً، وقد يحمله الخوف من العقوبة على الغش فيخسر الدنيا والآخرة.

١٠٩

لا تعقّدْ ولدك بضرورة أن يكون الأولَ على فصله دائماً، وليكن ما تريده منه وتحثّه عليه هو العلم والفهم والتفوق النسبي.

كم يخطئ الآباء والأمهات الذين يباهون بدرجات أبنائهم فيجعلون هذه الدرجات -من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون- الشغلَ الشاغل للولد، وتنتقل إلى الولد من أمه أو أبيه عدوى التفاخر والمباهاة بالدرجة لا بالعلم الحقيقي الذي يحصل عليه، بل هو قد يلجأ إلى الغش ليصل إلى تلك الدرجات أو ليحافظ عليها!

نَمِّ لدى ولدك الرغبة الحقيقية بالتعلم، ولا تقبل أن ينحصر هَمُّه في الدرجة العالية والمرتبة الأولى بين أقرانه، على ألاّ يقود ذلك إلى الإهمال والتقاعس والزهد في الدرجات العالية إطلاقاً، فلو حصل ذلك لفقد الولد الفرصةَ في دخول الكلية التي يريدها عندما يتخرج في الثانوية.

١١٠

الأطفال الموهوبون وأولئك الذين يتمتعون بمستويات ذكاء عالية يشعرون بالملل من المدرسة وبالغربة فيها، وهم يحسّون بالإحباط من الدراسة ولا ينسجمون مع المناهج (بل إن بعضهم قد يتفوق على مدرّسه أحياناً!) ولذا فغالباً ما يضيق بهم المدرّسون ويتهربون من أسئلتهم ومحاوراتهم، وربما ضاق الطلاب الآخرون بالموهوب المتفرّد كذلك بسبب تعاليه عليهم واحتقاره لعقولهم في بعض الأحيان.

إذا كان ولدك موهوباً (تأكد من ذلك أولاً، فأكثر الأبناء في نظر والديهم عباقرة!) فعالج هذه المشكلات بأن تنمّي لديه روح مساعدة الآخرين، بحيث تصبح المدرسة مكاناً للتنفيس عن تفوقه بدلاً من أن تكون محلاً لوأد الإبداع، ووفر له مجالاً للتعبير عن إبداعه الزائد في البيت، واجتهد في الاتصال بالمدرسين ليصبحوا أكثر تفهماً له وتعاوناً معه.

الخلاصة

لعلّي قد أمللتكم بكثرة النصائح التي أدرجتها في هذا الكتاب، ولعل بعضكم قد استعجل الفراغ منه فقفز إلى هذه الصفحة الأخيرة، فخيراً يفعل إن قرأها قبل أن يلقي بالكتاب جانباً.

النصيحة الأولى في الكتاب كانت عن التربية بالحب، وإليها سأعود في الختام. سأكرر مرة بعد مرة ولن أمل حتى تملّوا من القراءة: ربّوا أبناءكم بالمحبة، واجعلوا اللطف والعطف والمودة رسولَ كل أمر ونهي وكل توجيه وكل تقويم، وتأكدوا من إيصال رسالة المحبة في كل يوم من أيام الحياة، بل في اليوم الواحد مرات.

إنها الهدية التي نقدمها لأبنائنا صغاراً ونسترجعها منهم كباراً إلى آخر العمر، فماذا يبقى حين نكبر ونضعف إذا فُقِدَت بيننا وبين أبنائنا أواصرُ المحبة؟

ولكن لا تنسوا أيضاً ذلك الأمر الآخر المهم الذي تعرضَتْ له نصائحُ كثيرة في الكتاب: الحزم والانضباط، فإن محبةً من غير ضبط وربط مآلُها إلى

إفساد الطفل بالعاطفة والدلال، والذي يُفسده الدلال لا يُرجى منه خير، لا لنفسه ولا لوالديه ولا لأمّته!

إن الحب الذي يمنحه الوالدان أبناءَهما ركنٌ ركين من عملية التربية السويّة، وطاعة الأبناء آباءَهم هي الركن الآخر، ولن تستقيم تربيةٌ بغياب أيّ من هذين الركنين.

فلو أنّ امرءاً قال لي: لخص أفكارك عن التربية في كلمتين، لقلت له: «الحب والحزم»، مَن أوتيهما فقد ملك أسباب التربية الناجحة الصالحة. على أن يستعين بالله حق الاستعانة ويسأله التوفيق في هذه المهمة الدقيقة الجليلة، ويدعو لولده بالصلاح في كل يوم وليلة، فإن الواحد منا لَيمضي الليل والنهار بالدعاء لولده بالشفاء لو مرض وبالنجاح يوم الامتحان. أفيكون البُرء من مرضٍ أو التفوق في امتحان من امتحانات الدنيا أهمَّ وأخطرَ من امتحانٍ يُفرَز مِن بعده ولدُك: إلى الجنة أو إلى النار؟

أسألُ اللهَ لكم ولأولادكم التوفيق والفلاح في الدنيا والآخرة، وأن يجعل الجنة لكم ولهم دارَ القرار.



فهرس الموضوعات

(الرقم الذي يأتي بعد الموضوع في هذا الفهرس
يشير إلى رقم الفكرة لا إلى رقم الصفحة)

-أ-

-ب-

-ت-